ودارت الأحلام

خديجة حمودة

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا 8، مدخل 1
هاتف: 1003288596 (0020)
بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

ودارت الأحلام

خديجة حمودة
الطبعة الأولى، القاهرة 2020م
غلاف: أحمد بهاء
مراجعة، تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
رقم الإيداع: 2407 / 2020
I.S.B.N \ 978-977-6794-04-7

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

وداعاً الأحلام

((مقالات))

خديجة حمودة

إلى حبايبي والغاليين عليا
وسبب وجودي وحياتي وفرحتي
وأحيانا دموعي وضحكتي
أهديهم أول أوراقي
وأول فرحة ويوم من أيام سعادتي
ودرجة من درجات نجاحي

البادي أظلم

عندما تفقد الحماس والاهتمام والرغبة في الاقتراب من شخص ما، فإن جميع قنوات الاتصال به تتوقف تمامًا وتختفى من أمام عينيك، وحتى إن حدث شيء مهم وضخم ولافت للانتباه وصاخب حتى الإزعاج حوله وتحدث الجميع عنه وتبادلوا الآراء والتوقعات والتعليقات والتحليلات والدعوات، وربما عبارات الشماتة واللوم أو الشفقة، والتقطوا له الصور، وتناقلتها أوراق الصحف وصفحات البريد الإلكتروني ووسائل التواصل الاجتماعي في شغف وثرثرة، فإنه لا يصلك شيء من كل هذا، ولا يستطيع اختراق المدى الخاص بك أي خبر عنه، لأنه أغلق أمامه...

و انتهت العلاقة تمامًا، كما لو كان القمر الصناعي الذي أوصل بينكما المشاعر ونبض قلبيكما ودفأه وكتب على السحب بمداد لا يمحى قصة هذا الملاك البريء الجميل حامل القوس والسهم «كيوبيد»، الذي أصابكما معًا قد اختفى فجأة من مداره، وضاع وتاه وسط فضاء لا نهاية له فقد خرج من دائرة القلب والعقل واللاشعور والأحلام والأمنيات والتفسيرات المختلفة والبحث عن أسباب لكل ما يحدث له أو حوله.

وهناك أشخاص كثيرون تتوقف العلاقات بهم بالطريقة نفسها، كما لو كانوا ورقة من دفتر يوميات سقطت سهوًا أو عمدًا أو مع

سبق الإصرار والترصد، فكل واحد منا يختار طريقة وطريق وخطة انسحابه، أو التخلص منه، وإلقاءه وسط النفايات والمخلفات بلا ألم أو ندم أو تفكير ولو للحظة أو برهة أقل في الزمن والمعنى والمغزى من غمضة العين.

وقديمًا قال الحكماء إن النسيان ليس سوى قلب صفحة من كتاب العمر، وإن الأمر قد يبدو سهلًا، لكن اقتلاعها إن كان صعبًا فإن صاحبها سيعثر عليها بين كل فصل من فصول حياته، ويبدو متخذ مثل تلك القرارات كما لو كان قد تقمص روح الشاعر «نزار قباني» عندما قال «أيها النسيان هبني قبلتك أيها النسيان أعطني يدك كي أسير في مدن ذكرى معك يا نسيان هبني قبلتك»، أو كأنه يهمس بهدوء بكلمات الكاتبة «غادة السمان»، عندما آلمها موقف الحبيب فقالت «الذاكرة بالذاكرة والنسيان بالنسيان والبادي أظلم»، في جملة قصيرة صادمة متحدية تحاول أن تؤكد من بين حروفها أن ما حدث منها كان رد الفعل الطبيعي لما عانته وما لم تجده وما لم تحصل عليه مقابل ما أعطت ومنحت ودللت وهدهدت.

إلا أن هناك كاتبًا آخر قدم نصيحته لمن يريد أن يغلق صفحة ويرحل فقال «شيء واحد حاول ألا ترتكبه في حياتك قبل أن تحاول النسيان اشبع بمن كنت تحب حتى لا تحمله معك في عزلتك ذكرى تنغص عليك حياتك»، ويؤكد الشاعر فاروق جويدة المعنى نفسه حين يقول «وقد نهفو إلى زمن بلا عنوان، وقد ننسى، وقد ننسى، فلا يبقى لنا شيء لنذكره مع النسيان، ويكفى أننا يومًا تلاقينا بلا استئذان».

وإذا كانت الذاكرة هي قدرة العقل الحقيقية، فإن النسيان هو أفضل صديق للقلب، خاصة أن الذكرى لها رائحة تلتصق دائمًا بكل شيء بكل الأماكن وكل الأشخاص، فلا يجدي معها النسيان ولا التناسي.

وإذا كنت ممن تؤلمهم قرارات الرحيل وإغلاق الصفحات فإن علم النفس ينصحك على لسان وبقلم أشهر أطبائه «د. يحيى الرخاوي» في كتابه «قراءة في النفس البشرية»، أن تلجأ إلى أحد المختصين، الذي سيساعدك على إعادة تنظيم علاقاتك حتى لا تشعر بأنك الطرف الخاسر دائمًا، أو أنك تقدم تضحية بلا ثمن، فهو الوحيد القادر على تحليل وتفسير عواطفك واهتماماتك وتوجيهها إلى الطريق الصحيح.

ومن الطريف أن يقدم لك تفسيرًا لهذه النصيحة، حيث يؤكد أنك تشتري وقت الطبيب النفسي واهتمامه وعواطفه وتدفع مقابلًا لرأيه، ولأن يحمل بدلًا منك همّك الثقيل ولو لبعض الوقت، ورغم بشاعة تعرية هذه المهنة باعتبارها للبيع، فإنها تبدو حلًا معاصرًا مناسبًا لمن يريد إغلاق الصفحات في هدوء وبلا تردد.

بصمات مهنية

في حياتنا المهنية نسعى للتميز والتفوق و إتقان ما نقوم به، لنترك ما يشير إلى مرورنا في هذا المكان أو تلك الوظيفة، ومن أجمل الأحلام أن ترى اسمك وقد كُتب فوق مبنى تعليمي أو طبي أو معمل للتجارب أو استوديو لبث الأخبار على الشاشات والإذاعات، وقد يتسع الحلم ليوضع الاسم أعلى مبنى مؤسسة كبرى، أو تحمله جائزة سنوية تمنح للمتفوقين في نفس المجال، أو يُنشأ وقف خيري يخصص دخله باسمك للإنفاق على الطلبة غير القادرين ودور الأيتام، وتستمر بِنَا الحياة العملية لتنهال علينا الدعوات والأمنيات والحب ومشاعر الامتنان والرغبات في الاقتراب أو العكس، وقد نفتح عيوننا على الورود الجميلة والأوراق الملونة وأصوات الموسيقا أو رائحة الكيماويات والمطهرات والفورمالين وأدوات تجرح الأيدي وتمزق الأجساد، بحثًا عن سر الصحة أو الموت، وقد تتبدل تلك الآلات بأقلام لا تكتب إلا الشعر والنثر، وتحكى حكايات الأصدقاء والطفولة والشباب والمغامرات، أو أجهزة حاسبات آلية وأسطوانات مدمجة لا تحتاج إلا لمسات رقيقة فوق حروفها لتنفذ أي أمر يوجَّه لها، أو إلى خزائن حديدية ضخمة لا تبوح بأسرارها إلا إذا اجتمع العدد القانوني من العاملين، ليقدم لها كل منهم هويته ومفتاحه، وهنا فقط تخرج ما أخفته سنوات عن العيون من كنوزوأوراق ووصايا تغير حياة أصحابها، وقد تضم مذكرات لشخصيات سياسية شهيرة تغيّر

مسار التاريخ والمجتمع، وقد تندلع بسببها الثورات ويخضع الكثيرون للمحاكمات خلف الأسوار.

بسبب تلك البصمات التي لا نملك منها فرارًا أو نكرانًا أو تغييرًا، يحدث كل هذا، وما أشبهها بفصيلة الدم أو بصمات الأصابع أو لون العيون أو الجينات الوراثية التي تلازمنا العمر كله، وتعتبر من سماتنا الشخصية، ونثبتها في أوراق الهوية، وتميزنا وسط الملايين الذين نعيش معهم باحثين عن الاختلاف، لنشير له ونتميز به، وقد نضمه إلى كنيتنا، وتحمله وتتوارثه أجيالنا بفخر وعز.

وبعيدًا عن أحداث فيلم «زوجة رجل مهم» وحبكته الدرامية التي أكدت أن ضابط الشرطة تأثر بمهنته وحمل بصمات لا تخطئها العيون من قسوة وعنف وشك وقدرة عالية على الفتك بأي شخص يتعامل معه أو يشاركه الحياة، فإن دراسات علم النفس الاجتماعي وخبراء الاجتماع أكدوا أن بعض الوظائف لديها قدرة عالية على إحداث تغيير في شخصياتنا، وممكن اعتبار بعضها أضرارًا فعلية تنعكس على القريبين منا والذين نتعامل معهم.

وقد عرض موقع «مايد بودي غرين» الأمريكي عددًا من الوظائف ذات التأثير السلبي التي تؤدي لتغيُّرات نفسية على ما يعرف بـ«شخصيتنا العملية» التي تسيطر على طريقة تعاملنا مع الآخرين و أنشطتنا على حد سواء.

وفي الدراسات النفسية يوجد ما يعرف بمبدأ «تأثير الهالة»، وقد أطلق هذا المبدأ أحد العلماء في القرن العشرين وتبعه آخرون بأبحاث وتجارب عدة تثبت صحته.

كما قدمت دراسة للملتقى الثالث لتطوير الموارد البشرية الذي عُقد بالمملكة العربية السعودية أشارت إلى أن الاهتمام بأخلاقيات العمل بدأ منذ عقد السبعينات من القرن الماضي، وسرعان ما ازداد به اهتمام الدارسين الأكاديميين والحكومات في الدول الغربية، ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية، حتى إن بعض الحكومات عكفت على وضع تشريعات جديدة لضبط أخلاقيات العمل.

ويقول أحد الكتاب والمفكرين إن الأخلاق نوعان، الأول طُبع عليه الإنسان، والثاني مكتسب تطبع له، وهي التي يمكن اعتبارها بصمات مهنية، فلنحاول جميعًا ألا تصيبنا لعنة المهنة، وألا تقترب من أحبتنا، أو تلوث مشاعرنا، أو تدمر علاقاتنا الإنسانية.

نديم شكواه

في أرقى علاقاتنا الإنسانية والعاطفية بداية من أيامنا الأولى في طفولتنا بل ونحن تحت الإعداد والتجهيز داخل أرحام أمهاتنا نسترق السمع لنبضات قلبها الدافئة ونفرح مع ضحكاتها فتزداد حركتنا ونلهو، محاولين المشاركة في تلك اللحظات السعيدة، نقاسمها الطعام والشراب ونستمتع بالمذاق اللذيذ والروائح النفاذة المنعشة ونلوذ بالصمت وتتوقف حركتنا تمامًا إذا بكت أو حزنت أو تألمت ولا نعود إليها مرة أخرى إلا عندما نشعر بقلقها على حياتنا، وبأنها استعدت تمامًا لخروجنا إلى هذا العالم الرحب المخيف الغامض المليء بكل صور الأمان والخوف والحياة والموت والنجاح والفشل والصعود للقمة والسقوط الموجع والضحكات والدموع وأصوات الموسيقا الإلهية والسيمفونيات الشهيرة و أبيات الشعر الساحرة الجاذبة لجميع الحواس، التي تستولي على القلوب والنفوس، والأنين الخافت المختفي وسط بقايا قصص الحب والغدر والصداقات والسفر والبعاد والحنين والأشواق والعودة لأحضان الوطن والحبيبة المنتظرة سنوات وسنوات نبحث جميعًا وسط كل هذا الصخب عن العدل والعدالة، نبحث عن النديم الذي يقولون عنه بكل صدق إنه السمير والأنيس والجليس والخليل، وهو الذي غنت له أم كلثوم كلمات الشاعر (أحمد رامي)، فقالت عنه إنه (نديم شكواه) وهي من أجمل وأرق الصفات، لأنه الشخص القريب للقلب والعين وشريك

الأحلام السعيدة والأمنيات واللحظات النادرة الباقية في الذاكرة إلى الأبد، وصاحب القدرة العالية على الاحتواء والفهم عندما تضيق النفس بما تحمل، فهو الدواء في تلك اللحظات، وفي معادلة الحياة وهي أصعب معادلة في علم الرياضيات والطبيعة على الإطلاق، لأن معطياتها كثيرة ومتشعبة وتختلف من شخص لآخر، كما أن عملياتها الحسابية من قسمة وضرب وجمع وطرح وتربيع وتكعيب وجذر تعطي نتائج متباينة وغريبة وغير متوقعة، ومهما حاولنا أن تكون قسمتها بالحق فإن النهاية دائمة تكون صادمة، وإذا حاول البعض استخدام أحدث نظم الحاسوب للحصول على نتائج دقيقة دون أدنى خطأ فإن ما يدخله للجهاز من بيانات وأرقام قد تتبدل أو تتغير أو تختفي تمامًا فجأة من الشاشة، حتى ولو عن طريق السهو أو الخطأ شأنها في ذلك شأن التجارب المعملية التي تتم على أيدي خبراء الكيمياء، ويتعجبون من نهاياتها اللامنطقية، بالرغم من محاولاتهم تطبيق القوانين التي تحمل أسماء مكتشفيها وكبار العلماء العباقرة، والتي تعطي الأجيال المتعاقبة التي تتقنها وتدرسها وتبرع فيها فرصة الانتماء لعالم الطب والعلوم والذرة والفضاء، وسط كل هذه الكلمات والأرقام والأحداث والصور المتتالية التي تترابط وتحكي ما يحدث لنا جميعًا يبقى هو الملاذ والهدف والمنى والرزق الوفير والمنحة الإلهية الكريمة والحظ السعيد، فما أروع أن يكون سميرك ونديمك وجليسك معك لحظة بلحظة، وإذا كان الحكماء والفلاسفة يؤكدون أنه ليس من المقبول أن يحصل أحدنا على كل شيء وقتما يريد ولا يمد يده للآخر، فهذه العبارة هي الاختصار الدقيق لكل ما سبق، وإذا كان الله سبحانه وتعالى يعدنا بالجنة والنعيم والسعادة وعودة الشباب والجمال وكل ما نحلم به أن أطعناه، فلماذا لا نعد أحباءنا بأي شيء؟ ولماذا لا

نمنحهم ما يريدون؟ العطاء قدرة وملكة وحب، ومن أسوأ ما يمكن أن تكتشفه هو أن يكون شريكك ليس لديه هذه القدرات، فوقتها لن يطلق عليه أي اسم أو صفة مما سبق، ووقتها ستكون من أصحاب الحظ القليل.

منحكم الله السعادة والسمير والجليس والنديم.

دفء القلوب

وتدور بِنَا مشاعرنا كالكرة الأرضيّة التي لا تتوقف مطلقًا عن الحركة دورات متتالية يومية كتلك التي تقوم بها كل 24 ساعة حول نفسها أو سنويًا حول الشمس فتكبر معنا أو تنكمش وتتقوقع حول نفسها وتدخل شرنقة لتختبئ عن الأنظار في محاولة للعودة للحياة في مشهد جديد مرتدية ثوبها الحريري النادر الثمين الذي صنعته بنفسها (ملكة الأنسجة بلا منازع)، وهو اللقب التي أطلقه عليها علماء الطبيعة والأحياء في حديثهم عن دودة القز وتعريفهم لها ولدفئها الخلاق المبدع، حيث تتبدل وتتحول لتصبح روحًا زاهية ناعمة مشرقة مقبلة على الحياة بكل تفاصيلها.

ونعود لمشاعرنا شبيهة الملكة فنقول إنها قد تطول وتزيد وتنمو أو تتقلص أحيانًا كما لو كانت شخصًا ينمو ويزيد وزنه فيخضع لأطباء التغذية لينقصه، وعندما تفشل تلك الأنظمة الكيميائية والنباتية والبروتينية وصاحبة الأسماء الحديثة غير الواضحة المعنى أو المغزى، فيضطر إلى أن يستسلم ليد الجراح القاسي النظرات والكلمات والأصابع والأدوات، فمشرطه لديه نفس القسوة والإصرار على تنفيذ ما يراه صوابًا بالرغم من أنه كثيرًا ما يخطئ، كما أن أرقام الدخول لعالمه فلكية بجميع العملات المحلية والأجنبية الخضراء والحمراء، وغالبًا ما نضع أمامها أربعة أصفار.

وتدور بِنَا مشاعرنا مع عقارب الساعة وتقفز فوق الأرقام والدقائق والثو اني وتضيف إجماليها وتجبر كسورها وتحولها لساعات صحيحة ولأيام، وتجمع الأيام لتصبح أسابيع ثم شهورًا وبعدها سنوات.

وعندما تتقلص المشاعر وتتحول لذكريات فإننا نبذل جهدًا خارقًا للحفاظ على تلك البقايا، فنتردد على نفس الأماكن، ونتناول نفس الطعام، حتى وإن أحسسنا بالفرق الكبير في المذاق بين الماضي والحاضر والصحبة المحببة للقلب والممتعة للعين والمشبعة لجميع الرغبات والوحدة والونس والوحشة وحضن الوطن والغربة والبيت والطريق والأرض الممهدة، والأخرى المليئة بالحجارة الحادة التي تدمي الأقدام، وتجهد البدن، وتسرق الساعات الطويلة للوصول للهدف، وقد لا يحدث وتبتعد المحطة المنشودة كلما زادت علامات الإجهاد، إلا أن الرغبة الشديدة في اجترار الذكريات والعودة لتلك اللحظات البديعة التي نغرق فيها في دفء القلوب تدفعنا للاحتمال والانتظار.

وتستمر مشاعرنا في الدوران طالما لدينا قلب ينبض ويرى ويتأمل ويختار ويدقق في الملامح والألوان، ويستمع للكلمات والموسيقا والأغنيات، ويقرأ أبيات الشعر، ويبحث في فضول ممتع عن وحى كل عمل فنى مبدع، ليتوقع قصة حب رومانسية تسعده تفاصيلها، ويبحث وينتظر نهايتها، فهو أول مَن يدرك جيدًا أن دفء القلوب وراء كل ما يمتعنا، ووراء كل مولود جديد، سواء كان إنسانًا أو نباتًا أو وردة أو علمًا أو نظرية حسابية أو كيميائية أو حتى قانونية، أو شيئًا معنويًا، فالدفء يدفع بالجديد للحياة، لأنه نقيض البرودة والموت والصقيع والتجمد.

وبحثًا عن دفء القلوب أدركت في تلك الرحلة التي استغرقت منّي فترات طويلة أنها كدرجة حرارة الجسم الداخلية، تعتمد بشكل كبير على التوازن ما بين فقدان الحرارة و إنتاجها.

وإذا كان للجسم قدرة للحفاظ على درجة حرارته فالأمر متشابه مع القلب، إلا أنه في بعض الأحيان، ونظرًا لحدوث بعض المشكلات الصحية، فقد ترتفع درجة الحرارة أو تنخفض عن المعدل الطبيعي وتخرج عن السيطرة، لذلك فعلى كل منا أن يعرف جيدًا درجة حرارة جسده الطبيعية حتى يكون قادرًا على معرفة أي تغيير يحدث لها عما هو طبيعي، ليحافظ على دفء قلبه وقلوب أحبته.

نقطة دمع

في عالم الطيور والسماء الرحبة الزاهية ساحرة اللون المملوءة بالأساطير والحكايات والأبطال والفرسان الذين يظهرون ويتحركون ويتقاتلون، ويعقدون اتفاقيات سلام ويتصافحون ويتحابون ويحتضنون بعضهم البعض ويمسكون بأيديهم ملائكة الحب في صور بديعة، تعيش الطيور على تلك الارتفاعات الشاهقة بحثًا عن الوليف والدفء والأمان والعش الصغير والحب (بالفتحة على حرف الحاء) الذي يملأ البطون الصغيرة و أفواه أمهات الطيور الخضراء التي يغطي جسدها الزغب لتلقيه لصغارها، وهي تعلمنا أول دروس الحب والعطاء والحنان نحن البشر وتُلقننا دروس الذود عن الضعفاء وإخفائهم عن عيون الطامعين والصيد والقنص.

في هذا العالم يطلقون على واحد من أعجب المشاهد المهيبة والمخيفة والصادمة وغير المتوقعة «نقطة دمع»، وهي الطريقة التي يهبط بها الصقر على فريسته، ليلتقطها وينهي حياتها في نفس الزمن الذي تستغرقه هذه النقطة لتسقط إيذانًا ببداية البكاء المكتوم الذي حاول صاحبه إخفاءه كثيرًا، ووراءه كان الوجع.

ويقولون إن الصقر في تلك الحركة الخاطفة يشبه النقطة التي تظهر بها أول دمعة من عيني المحب العاشق الولهان الذي أضناه السهر والانتظار، فيبدأ في التعبير عن ألمه المختزن، إلا أن هناك

شبهًا آخر بين الحب والصقر، فإذا كان من المعروف والمذكور في موسوعات الطيور العلمية أن الصقور من الطيور الجارحة، وأنها تصنف كأسرع طائر في العالم لا ينافسه أي طائر آخر في سرعة طير انه والتي تصل إلى 389 كيلومترًا في الساعة، فإن هذا ما يحدث عندما يقع أحدنا في قصة حب، فيبدو كأنه نقطة الدمع التي تسقط من أعلى ارتفاع بتلك السرعة الجنونية إلى أحضان الحبيب وقلبه وحياته.

أما أهم السمات المشتركة بين المحبين والصقر، فهي حقيقة علمية تقول إن صائد الصقور بعد نجاحه في عملية الصيد وحصوله على أحدها، فإنه لا بد من دفن جسم الصقر بالكامل في الرمال، ما عدا رأسه الذي يجب أن يظل في وضع قائم للأمام وهي عملية ليست بالسهلة، ثم يُسكب الماء على جسد الصقر المختفي تحت الرمال لتهدئته.

ويرجع ذلك إلى أن الصقر بعد صيده يشعر بالذل والإهانة وينعكس هذا الشعور عليه ويؤدي إلى ارتفاع وسرعة في ضربات قلبه والتي تؤدي في النهاية إلى أن ينفجر القلب، ومن ثم إلى الموت.

وسبب آخر لدفن جسم الصقر بالكامل وهو محاولته نتف ريشه بمنقاره الحاد لإيذاء نفسه في عملية تشبه الانتحار حزنًا وكمدًا على سقوطه في الأسر، ومن المعلومات الطريفة عن صائدي الصقور أنه لا بد أن يبتعد عن صيده، لأن هذا الطائر لا ينسى مَن قام بصيده وإسقاطه ولا يُمحى ذلك من ذاكرته، ويحزن كلما نظر إليه، ومن الممكن أن يموت من شدة حزنه.

وما ذُكر عن هذا الطائر الثمين القوى جميل التكوين شديد الاعتزاز بالنفس هو ما يؤكده أطباء القلب عن الإنسان، وكيف يمكن أن يؤدي الحزن لانفجار قلبه وتعمده إيذاء نفسه، إذ لا يحتمل الفشل أو الإهانة أو عدم تحقيق أحلامه أو رؤيته لمن أفقده حريته، فلنحاول ألا نكون نقطة دمع في حياة أحبتنا ولا من صائدي القلوب، لأن خبير التنمية البشرية إبراهيم الفقي يقول: «لا تتعجب من عصفور يهرب و أنت تقترب منه وفي يدك طعام له، فالطيور عكس بعض البشر تؤمن بأن الحرية أغلى من الخبز»، كما أن هناك مثلًا شعبيًا من أيسلندا يقول: «ليست كل الطيور صقورًا»، أما جبران خليل جبران، فمن أجمل ما كتب: «لا تندم على أي إحساس صادق بذلته، فالطيور لا تأخذ مقابلًا نظير تغريدها».

تسرب الأحبة

هو فعل من أربعة حروف فقط إلا أنه يحمل الكثير عندما تجتمع تلك الحروف وتتشابك وتتشكل وتحصل على زمنها سواء كان حاضرًا أو ماضيًا أو مستقبلًا، فقد يزيد حرفًا أو يفقد آخر أو يغير تشكيله فيتحرك للأعلى أو الأسفل.

وهو في النهاية يتآمر علينا ويصر على فعل ما يريد ويعني ويضم ويحتوى ويرغب لنتألم ونبحث عن المخرج لمنعه إن كان لدينا القدرة على مداواة الجراح التي يصيبنا بها.

وقبل أن أحدثكم عن معانيه المختلفة وتلك الأزمات التي يتسبب فيها أقول وأؤكد أن أقساها وأعنفها هي تلك التي تمس أحبتنا وقلوبنا عندما نبحث عنهم فنجدهم وقد تسربوا من بين أيدينا.

وفي قاموس المعاني يقولون إنه فعل (تسرب إلى) أو (تسرب في) ويتسرب تسربًا فهو متسرب والمفعول به متسرب إليه.

فإذا تسرب الماء إلى البيت وسال وانساب فسيضيع الأمان والراحة وقد ينهار ونفقده إلى الأبد. وإذا تسربت الأخبار وانتشرت وشاعت رغمًا عنا فقد نصبح حديث الناس ويقومون بالهمز واللمز وتحكي العجائز قصص حياتنا لتدور من مجلس لآخر ومن بيت للثاني ومن مدينة للقرية دون توقف. وإذا تسرب الحزن إلى نفس فقد نفذ إليها وكسرها وآذاها وآلمَها. وإذا تسربت العين فقد بكت وسالت

دموعها دون توقف لأي سبب كان كفرحة كبيرة انتظرناها كثيرًا أو قصة حزينة هاجمتنا. أما إذا سرب شخص ما في الأرض فقد هام على وجهه فيها ومضى وفقد أهله وأصدقاؤه الطريق إليه.

ويقال على الاسم منه (السرب) وهو فريق فهناك سرب من الطائرات الحربية وآخر من الطيور المهاجرة التي تتآلف وتتجمع وتتشابك نفسيًا في مشهد فنى رائع يجوب السماء بحثًا عن الدفء ليتشاركوا جميعًا في رحلة واحدة. أو الحيوانات وإذا كان أحدهم في غير سربه فالمعنى الوحيد لذلك أنه أصبح غريبًا في جماعة لا ينتمى لها ويكون الجمع منه (أسراب).

وفي القرآن الكريم في سورة الكهف الآية 61 (فاتخذ سبيله في البحر سربًا) أي مسلكًا خفيًا. وإجمالًا يمكن القول إن جميع ما ينسب إليه أو أغلبه مؤلم في حياتنا ومشاعرنا ومدننا وأوطاننا بكل ما تحتوي وتعني وتضم وتشمل، ومنازلنا وحجراتها وأماكن عملنا بل حتى الطرقات التي ندب فوقها بأقدامنا.

ولأننا ندرك خطورته جيدًا فإننا نقاوم بشدة اقترابه منا فنغلق أبوابنا ونوافذنا وقلوبنا وخزائننا ونخفى أسرارنا بعيدًا عن العيون ونتشبث بشدة بأحبتنا ونشد أصابعنا على كف الصغار ونضمهم لصدورنا كما لو كنا نحاول إعادتهم لأول مكان وُجدوا به ونضغط على قلوبنا حتى لا تحكي ما بها ونتحمل آلام المرض لتخفيه عن الآخرين ولا تتسرب حكايته وتنتشر ونسعى للحصول على براءة اختراع ما لنثبت ملكيته ولا يتسرب نجاحنا للغير ونسجل اسم البرنامج الخاص لنتمسك بالحق في النجاح والحصول على لقب (المبدع) دون تسرب للفكرة ونضع الذكريات في أبعد مكان عن العيون ونحاول أن نخفي

الابتسامة الصادقة التي ترتسم على وجوهنا عند رؤية الأحبة ونفتعل كلمات لنخفي صوت دقات القلب وانفعالاته وتلك الضوضاء الصاخبة التي تصدح عندما تلتقي بالعزيز فجأة ودون ميعاد وكأنها ترحب وتهلل له.

ومن قسوة هذا الفعل وخوفًا منه ومن آثاره فقد حاولت كثيرًا ألا يتسلل أو يتسرب أي من أحبتي إلا أن الأقدار والأعمار والقسمة والنصيب كثيرًا ما تتغلب علينا فنبحث عن ساكني القلب فندرك أنهم تسربوا كما قال نزار قباني عن حبيبته أنها تتسرب مثل قطرة الندى.

جهاز قياس الحب

لدينا في حياتنا اليومية مئات الأجهزة التي تدير الحياة والأيام، ولكل واحد منها نظام خاص جدًا ومعلومات تغذيه يجب إدخالها عليه وشحنة تحركه قد تكون كهربائية أو بترولية ليدور الجهاز الذي قد يحتاج أحيانًا مجهودًا عاليًا ليعمل يدويًا بقوة الدفع ومعه تدور أيامنا ولياليا ودولاب العمل والدراسة والمشروعات والمدن الجديدة وكبرى الشركات والبنوك والمؤسسات وتنطلق القطارات وتحلق الطائرات والصواريخ عابرة القارات والسفن العملاقة وتصل الغواصات النووية إلى الأعماق، وهكذا تتحرك دنيانا ونتحرك معها، وعلى جانب إنساني بحت يمس مشاعرنا وكياناتها وأحلامنا وقصص الحب والزواج والأبناء والأحفاد والذكريات والأمنيات والآلام والأفراح جهاز يشاركنا كل هذا وإن لم يعلن عن اختراعه رسميًا ولم تحتفل به المؤسسات العلمية ولم يحصل على براءة اختراع ولم يرشح لجوائز الإبداع العلمي ولم يكتب عنه الصحفيون المتخصصون أو يعلنوا عنه على شاشات التليفزيون أو لافتات الطرق التي تضيء ليل نهار، وكأنها من عالم الجن الذي لا يستقر بمكان أو مدينة واحدة، ويظل يتنقل ويعدو ويطير ويهبط ويشاكس الجميع ويضاحكهم ويبكيهم، وبالرغم من وجود المئات من المعلومات التي تحركه وتغذى عقله ونملكها جميعًا إلا أن هناك تفاوتًا واضحًا ومختلفًا فيما بيننا، وفي أسراره والوقود الخاص به فهو (جهاز قياس الحب)، وعنه أقول إنه

هام وخاص ونادروثمين وضروري ويمنح مالكه صفات مبهرة ومبهجة ولافتة للأنظار، تضعه بين الصفوة والأشخاص التي يصنفون بالفرز الأول، وما من قصة حب عاشت ونمت وتحركت وأصبح لها شهادة ميلاد كالطفل الوليد سجل فيها اسم الأب والأم (الحبيب والمحبوب)، ولحظة الميلاد التي انبعث فيها أول شعاع ليخترق القلبين وكأنه شرارة كهربائية تعلن انطلاق الدقات والنبضات الخاصة جدًا، التي تتحول إلى لغة المولود وتتطوروتتغيروتعلوويصبح لها مكانة منفردة، كما لو كان أصحابها قد وضعوا لها كلمة سر من المحال اختراقها أو الوصول إليها إلا وقد ملك أصحابها هذا الجهاز الرائع، وإذا كنت من السعداء والمحظوظين فإن جهازك الخاص يعمل بالكلمة الحلوة والنظرة الحانية واللمسة الودودة الناعمة والوردة الصباحية من الحبيب، التي تلخص مئات الأفكار والكلمات وتقرأ عليك أبيات الشعراء وتسمعك دندنات الموسيقيين التي تحكي وتحكي وتهمس ويعلو صوتها أحيانًا ليوقظ الطيور من أعشاشها ويذكرها بضرورة نشر جناحها فوق الوليف ليقيه من برودة الفجر، التي ينتظرها كل ميلاد للنهار لتكون سببًا واضحًا وصريحًا لهذا الاقتراب الحميم.

وسيعمل بسرعة أكبر وستزداد دفعاته وسرعة عجلاته بتشجيع الحبيب لك على النجاح وإمساكه بيدك ليعلمك ويدلك على الطريق الصحيح إلى القمة، وأعود فأقول إنه إن كنت ممن يملكون جهاز قياس الحب فلن تعرف معاناة الهجر ولا قسوة الاشتياق والحنين ولا آلام الهجر والليل الذي يطول ويخيف ويوجع من الوحدة والحرمان من الأحلام، ولن تعرف معنى أن تعد الأيام والساعات والدقائق في انتظار من لا يجيء وأن تبحث عنه وسط الأوراق والكلمات و أبيات

الشعروهدايا المحبين ورسائلهم، وحتى لا تضيع منك الأيام والمشاعر الجميلة والقصص الوردية عليك أن تسعى وتعمل على امتلاك هذا الجهاز ليكون هو مرشدك وحارسك الأمين وونيسك وصديقك الذي يدلك أين تجد من يستحق أن تلوذ به، ومعه تعيش وتستمتع ولا تعرف معنى الندم أو الاختيار الخطأ.

وأنت العيد والعيدية

من أجمل أوقات الانتظار تلك التي نعيشها بطريقة دورية منذ بداية وعينا للأحداث والطقوس الخاصة والعامة والمشاهد والروايات والفرحة الكبيرة الشاملة المحتوية الجامعة الحاضنة المدللة لكل القلوب والبشر من حولنا والأماكن والمنازل والشوارع وأركان الترفيه والمأدبة الكبيرة التي تجمع الأحباب، ويأتون إليها كل عام كتقليد من بين الطقوس الخاصة والأطعمة الفاخرة التي تتفنّن الأمهات والجدات في إعدادها والثياب الجديدة والهدايا، انتظارنا للعيد والعيدية.

ولأننا نحتفظ بأجزاء دقيقة نادرة من مشاعر الطفولة مهما بلغ بِنَا العمر، فلهذه الكلمات سحرها الذي لا يتغيّر، ووقعها في القلوب، ومعناها ومغزاها ودقات حروفها المميز، الذي يشبه تلك الدقات التي يعلن بها فتح الستار على خشبة المسرح ورائحتها التي تملأ الهواء من حولنا وتخترق أنفاسنا وتعشش داخلها. وعندما نشبه شخصًا ما بأنه «العيد والعيدية»، فإن لذلك معاني كثيرة وعميقة وساحرة وأخاذة وملهمة لأي مبدع على وجه الأرض في أي زمان ومكان.

فهو المنتظر مهما طال الانتظار والحلم حتى لو لم نره، والوحي والإلهام ولحظة الميلاد ودقة القلب والمشبع والمغنى والصديق والحبيب والشريك. وعندما تقسو علينا الأيام وتحرمنا من صاحب

هذه الأوصاف يقوم بعضنا بأداء تمثيلي، كما لو أن الأمر لا يعنيه وينفي عن نفسه المعاناة ويدفن مشاعره واحتياجاته الطبيعية للصمود ولإثبات قوته الوهمية.

وتبدأ قصة البطولة في رواية الانتظار، ولا أنسى، مهما مر من سنوات، ما قالته لي تلك السيدة التي عاشت لأطفالها بعد زواج لم يكتب له الاستمرار عندما أفضت لي بسر نسائي بأن لديها عددًا لا يُحصى من أثواب جديدة تحتفظ به بعيدًا عن العيون، وعن يديها، حتى لا تمتد لها وتختار أي ثوب منها يظهر جمالها ومفاتنها، فقد أصبحت تملك كنزًا من تلك الملابس في انتظار «العيد والعيدية»، إن كان هناك أمل أن تجده يومًا ما وأن تستمتع معه بالكنز الذي تخفيه، خوفًا من عيون تخترق الأجساد والمشاعر، وتحاول أن تلعب دور الصياد، بحثًا عن فريسة تلتهمها دون رحمة. ولأن الصغار يقومون بالعد التنازلي لقدوم العيد، وارتداء ملابسه، فقد اعتادوا على احتضانها و إبقائها في متناول أيديهم تلك الليلة، لتكون هي أول شيء تراه عيونهم عندما تعلن الشمس ميلاد العيد.

وكطفل صغير يملأه الخوف والفرحة واللهفة والسعادة والزهو والامتنان والتفاخر في مزيج مدهش أشرفت على إعداده بدقة وحرفية أمنيات اللقاء نظل نعيش حياتنا جميعًا على اختلاف أعمارنا وحالتنا الاجتماعية المسجّلة في بطاقات الهوية، التي تعلن من منا ما زال في انتظار اللقاء، ومن غادره الحبيب بلا عودة، ومن لديه الحق في البحث، والآخر الذي فقده، ولا يمكن استعادته مرة أخرى، طبقًا لقوانين المجتمع، الذي يسقط البعض من حساباته عامدًا متعمّدًا، وعليه أن ينسى.

نظل نبحث عن الحضن الذي يجمع داخله جميع المشاعر لنلوذ به، وعن اليد التي تقدم الوردة الحمراء لتهمس بكلمات الحب والياسمين الأبيض، ليعطر الأيام، وزهرة البنفسج الناعسة لتطبع قبلة ناعمة على الجبين وعن السند، لنختبئ خلفه من قسوة القدر والأيام وعن الشاعر الذي ينظم الكلمات ويصفها في حديث عن الجمال المختفي خلف الخزانة المملوءة بالثياب الناعمة، وحقيقة الأمر أن من نبحث عنه يستحق الكثير فهو «العيد والعيدية».

قلبي ومفتاحه

يقولون في حكاوى الونس والسمر والسهر والذكريات والدردشات وجلسات الشابات الجميلات اللاتي تداعبهن أحلام الحب وصوره ومكاتيبه ومراسيله وهداياه وورود وخطاباته ومواعيد لقائه، إن للقلوب مفاتيح لا يملكها ولا يعرف طريق الوصول إليها إلا أصحاب الحظ السعيد والصفوة والأنقياء أصحاب النفوس الخضراء المحلقة مع الطيور، التي يختلط صوتها عندما تتحدّث بعندلة العندليب، وهديل الحمام، وشدو البلبل، وهدهدة الهدهد، لتنافس أشهر وأرقى وأنعم الموسيقات العالمية، وتطرب من يستمع إليها، فيعشقها ويعتاد الحياة المغلفة بها، كما لو كانت قطعة حلوى سويسرية الصنع من الصعب نسيان مذاقها، ويؤكدون أن هؤلاء تفتح لهم أبواب الحب والجمال والخير والإبداع والنجاح ولا يغلق أمامهم أي باب أو قلب إنسان.

وإذا كان من الصعب أو المستحيل أن يصنّف أحدنا نفسه ويضعها وسط هؤلاء، فقد يكون من الأسهل أن نتحدث عن ذلك المفتاح الذي حير الجميع على مر العصور، ألا وهو مفتاح القلوب.

ففي إحدى الصفحات الأدبية، قال شاعر في رده على سؤال حول المحبوب، وكيف يحتفظ به الحبيب (عندما يهديك أحدهم مفتاح قلبه فاحرص على ألا تضيعه فإن ضيعته فلن تجد له نسخة أخرى)،

أما «الأحوص الأنصاري» فقد قال (ما سُمي قلبا إلا من تقلبه).

بينما قال على بن أبى طالب (احرص على حفظ القلوب من الأذى، فرجوعها بعد التنافر يصعب، إن القلوب إذا تنافرت ودها شبه الزجاجة كسرها لا يشعب).

ويبدو أن تلك الأقوال تحمل المعنى نفسه، وهو أن تفقد قلب المحبوب، وأن يغلق أبو ابه أمامك، وتكون أنت من أضعت مفتاحه.

وعمن يتسبب في ضياع ذلك أقول لكم إن دراسة نشرت في الكلية الأمريكية لأمراض القلب في دورتها العلمية الـ 66 عام 2017 ذكر فيها أن الاكتئاب والوحدة القاتلة والذكريات المؤلمة تؤدي إلى ارتفاع احتمالات الإصابة بأمراض القلب وقد تؤدي إلى الوفاة المفاجئة وهو ما يطلق عليه طبيًا عطب القلب. وقد وضعوا في الدراسة نصائح للحفاظ على القلوب، وهي البشاشة والحب ومشاركة الأحبة الاهتمامات والمشاعر والتعود على الإنصات لهم ومشاركتهم أهم اللحظات الخاصة الثمينة المفرحة أو العكس، لأن تلك المشاركة تعتبر من أهم مفاتيح القلوب.

وإذا كان المفتاح في قاموس المعاني اسمًا، وجمعه مفاتيح ومفاتح وهو الآلة المستخدمة في الفتح والغلق للأبواب ولأجهزة الحاسوب أو آلة الطباعة أو معالج الكلمات، وفي عالم الجغر افيا فإن هناك مفتاح الخريطة، وهو الشرح التفصيلي المرفق بها لكل ما تحتويه، إلا أنه في عالم الموسيقا له مكانة خاصة، حيث يرمز إلى درجة النغم لسطر واحد مدرج موسيقا، وهو الذي يمكن أن يحدّد الدرجات الأخرى من السلم الموسيقا. كما أن من ضمن معانيه مفتاح الكلام،

أي ما يوضح المعنى، كما أنه المعلومات التي تستخدم لتعريف بند في نظام تخزين أو استرجاع بيانات.

ومن أجمل التعبيرات التي يظهر فيها المفتاح عندما نقول (فتح له قلبه، أي تحدث معه وباح له بسره، ووثق فيه) و(فتح الله عليه، أي أنار بصيرته) و(فتح على فلان، أي أقبلت عليه الدنيا) و(فتح أذنيه، أي أصغى باهتمام).

ولأنني من عشاق الشعر والأغاني التي تتحدث عن أهم ما يشغل المحبين ويسعدهم، فما زلت أردد كلمات الشاعر الغنائي «فتحي قورة»، التي سمعناها بصوت فريد الأطرش (قلبي ومفتاحه دول ملك إيديك)، وتطربني لأنها تؤكد لي صحة ما ذكرته لكم عن هذه العلاقة الحميمة وقصة المفتاح الذي قد يشقيكم العمر كله إن أضعتموه، فرفقًا بأحبتكم، حتى لا يأتي يوم تبحثون فيه عن تلك الآلة الصغيرة التي قدموها لكم في ذروة مشاعرهم، وأضعتموها وأنتم تدركون أنه لا بديل لها، ولا توجد صورة أخرى لها، وأن ما أغلق لن يُفتح من جديد.

حدوتة حلوة

هناك كلمات تُشعرك بالدفء والحب والامتلاء والشبع والاكتفاء من مجرد النطق بحروفها، بل قد تجد لها مذاقًا ناعمًا دافئًا لا يُنسى، ويترك أثرًا يستمر بعدها دقائق أو ربما ساعات، ويُذكرك بتلك التي اعتدت على الانتعاش منها في طفولتك، والاحتفاظ بها أكثر وقت ممكن داخل فمك، لتعيش متعة طفولية لاذعة ضاحكة، وكأن هناك شيئًا ما قد اختبأ بين أسنانك ليداعبك ويشاغبك ويطلق همهماتك السعيدة، فهناك دائمًا حاجة حلوة.

وإذا كنا قد استعذبنا المذاق الحلو فوق شفاهنا منذ الصغر، فإن الحياة تسير ونتذوق الكثير من أشياء مختلفة ومو اقف غريبة متناقضة، إلا أن الحلاوة واحدة لا تختلف كثيرًا.

وعن رؤيتي الخاصة جدًا، فإنني أستعذب الكلمات التي تضم حرف الحاء، وأجد لها مذاقًا حلوًا، لأنها تشترك في أجمل المعاني و أبسط المخارج، فأشعر أنها تريح الفم في خروجها بلا أي مجهود، كما تشير لكلمات كلها جمال، فمنها «حياة وحلوة وحب وحبايب وحنان وحنين وحكاية وحدوتة وحلوى وحلال وحليلة» وكأنها استولت على جميع معاني الحب، واحتفظت لنفسها بها بلا منازع، والمعاني كثيرة ومتعددة، ووراء كل منها حدوتة وحكاية.

ولعل أولها كيف ظهرت تلك الحروف الدافئة؟ وما هو تاريخها؟ فبعد بحث وتنقيب، وجدت أن هناك آراء ظهرت حول تاريخ الأبجدية العربية، تشير إلى أنها اشتقت من الخط (المسند)، وأن أول من وضعوها هم «نفيس ونضر وتيماء ودومة» من أولاد «إسماعيل»، وأنهم وضعوها متصلة الحروف بعضها ببعض حتى الألف والراء ففرقها، فكانت «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت».

أما الحدوتة الثانية فتقول إن الأبجديات مشتقة من العربية، وإن أنظمة الكتابة اتخذت أحرفها من أصول حروف اللغة العربية، فتداولتها وتناقلتها، وكان اشتقاق الحروف بطرائق، منها الشكل بالهمز أو النقط، وربط الحروف ودمجها وتغيير الرسم، فنشعر جميعًا بحلاوة اللغة العربية وتاريخها، ونفخر أننا من أبنائها.

وإذا انتقلنا لحدوتة ثالثة فسنجد أن الحياة ممتلئة بالتناقضات المذهلة، فهناك أشياء من الصعب أن تصدقها، أو تمر بخيالك في علاقتنا الخاصة، فهل يمكن أن يدعي شخص الغيرة واللهفة داخل نظراته والقلق فوق ملامحه؟! وهل يستطيع البعض إتقان تلك الأدوار وخداع الآخرين؟!

فقد أثبتت التجارب والمشاهد والحكايات الحلوة والمرة صحة هذا التساؤل، وأن هناك أناسًا يُجيدون لبس الأقنعة وتغييرها، وأن الشح العاطفي يقضي على جمال الحب وعلاماته المشرقة، ويحول الألوان الزاهية المبهجة إلى أخرى قاتمة كئيبة.

فعندما يرى المحب السعيد القمر يرى فوق صورته وجه طفل جميل ضاحك، أما إذا كان يعاني، فنفس الصورة ستتحول إلى قرص

مستدير مليء بالندبات والجروح والدماء المتجلطة القاتمة التي ترسم بخطوطها المتعرجة المتقاطعة المتراكمة في بعض النقاط، والباهتة في أخرى خريطة فوق وجه القمر تحكي الحدوتة المرة، ورغم أن المشهد واحد في الحالتين، لكن المشاهد والمتأمل مختلفان.

فهناك المغرم الولهان المجهد عليل القلب، وهناك أيضًا المكتفي المرتوي الممتلئ، والفرق بينهما وبين حدوتة كل منهما كبير وغريب.

ومن الحواديت الحلوة التي أعجبتني بمعناها وما تحمل بين كلماتها ما كتبه الصحفي الشاب ميشيل سامح، كدعوة لنا قبل أن نلقى بأنفسنا داخل أنهار الحب العميقة، متمنيًا لو أصبحنا مثل الأدوية على أغلفتها يُكتب تحذير بضرورة الحفظ بعيدًا عن متناول الأطفال وداخلها نشرة تتحدث عن الآثار الجانبية لتعاطيها فترة طويلة أو وجيزة.

لنقرر إما الاقتراب أو الانسحاب من البداية، إذا أدركنا أن التجربة قد لا تكون حدوتة حلوة. وإذا انتقلنا لآخر ما أريد أن أحدثكم عنه أحبائي وأصدقائي فهي أمنياتي لكم أن تكونوا دائمًا الحدوتة الحلوة في حياة أحبائكم، ليحتفظوا بذكرياتهم معكم بحثًا عن المذاق الطفولي اللذيذ الذي لا يُنسى.

حكاية العمر كله

نعيش حياتنا جميعًا منذ اللحظة التي ندرك فيها معاني الكلمات، نحلم بالجنة وقد تعلمنا وسمعنا على اختلاف أديانّنا ما يجعلها بالنسبة لنا الجائزة الكبرى، التي أعدها لنا الله، ولعل أكثر الأمنيات التي تلازمنا جميعًا لقاء الأحبة بها الذين غابوا عنا بمختلف الأسباب، سواء رحيل أو هجر أو عدم وصال أو غياب الحب والنصيب أو سوء الحظ، والوقوع بين أيدى بشر لا يعرفون المعنى الحقيقي للإنسانية والرحمة والحنان والعطاء والأمانة والوفاء بالوعد، فتظل ذكراهم وصورهم المثالية التي نرسمها بمشاعرنا ورغباتنا وآمالنا تتردد في الأحلام في انتظار اللقاء الموعود وسحره وأشواقه وقضائه على الحنين الموجع الذي يلازم البعض سنوات عمره.

ولأن لكل منا حكاية العمر كله وحبًا وأملًا وفرحة وترقبًا ووعودًا، فإننا ننتظر الجنة التي سنحيا فيها حياة أبدية ومتعة لا تنتهي دون الآلام التي عانيناها وعشناها، وكم من أعمال فنية على مستوى العالم واختلاف الثقافات خرجت تتحدث عن الفردوس، وهو المرادف الأول للجنة، بل وتحمل اسمه، وأبدع أصحابها في تصور ووصف وشرح محتواها وملامح سكانها وملابسهم وعلامات السعادة والرضا على وجوههم ونضارة أجسادهم وملامحهم الشابة التي لا تشيخ وضحكاتهم والموسيقا الإلهية التي يسمعونها والفاكهة التي تحيطهم وأنهار الشراب الذي لا يسكر في كل مكان، ونشوة السعادة

المستمرة التي لا تنتهي، ويقول الفلاسفة عن أسعد لحظات العمر (الخروج من الطفولة هو التكرار الأبدي لمسألة الخروج من الجنة)، فالصغير يظل محاطًا بالملائكة تؤانسه وتضاحكه ويلهو معها وتحرسه وتحميه من أي أذى وترزقه ما يتمنى بقلبه الأخضر البريء، وتشبعه إن هاجمه الجوع وتحتضنه في نومه وتنافس في نعومة أحضانها حضن أمه بل وتسبقها إليه دائمًا، ويراها ويتحسس ملامحها النورانية فتنطلق همهماته ومناغاته وضحكاته حتى يغادر تلك المرحلة الناعمة الرقيقة والبريئة، وينتقل إلى المراحل الأخرى من حياته ليعاني وينغمس في الواقع وتهاجمه أحيانًا آلام وإخفاقات ومحن لم تمر به في جنة الطفولة.

فأي جمال تحمله كلمة (أنت جنتي) عندما يسمعها الحبيب! ويكفي أن واحدًا من أشهر الشعراء (إيليا أبو ماضي) خاطب حبيبته قائلًا (أيقنت أنك جنة خلابة فحننت من بعد المشيب إليك)، أما الشاعرة نازك الملائكة، فقالت (كيف يشقى الراعي وبين يديه جنة من مفاتن وضياء)، وما زال صوت أم كلثوم يردد (أنت يا جنة حبي واشتياقي وجنوني)، وفي أشهر قصائده وصف نزار قباني حياة المحب القلقة (اختاري الحب أو اللاحب لا توجد منطقة وسطى ما بين الجنة والنار)، وهنا نكون قد وجدنا ما نبحث عنه في حكاية العمر كله، التي نتمناها جميعًا في جمال الجنة من كلمات الشعراء والكتاب.

فما الذي ينقص منا إذا أعطينا أحبتنا ما يريدون وجنبناهم الحرمان والمعاناة وطول الانتظار وألم القسوة والجفاف، حتى إنني سمعت إحدى السيدات تقول (لم أجد في حياتي من المحيطين بي من أتمنى أن أصحبه في الجنة!) فأي علاقات خربة تلك التي تدفع

بإحساس كهذا لقلوبنا، وأي جراح أو ندوب تلك التي تصيب الأرواح من المحبين تدفعهم للرغبة في الفرار حتى بعد الموت من محبين أدموا قلوبهم و أفكارهم لتتلون بتلك الألوان الداكنة القاتمة! وإليكم أحبتي أقول فلنحاول جميعًا أن نعيش جمال الحب ونستمتع به بجميع مراحله، هيا نحب الأيام والحياة والمقربين، ولنكن لهم جنة المأوى وجنة المنتهى، ولنقدم لهم زهور الجنة ونسمعهم صوت عصفورها ولنهدهدهم ونضمهم ونحتويهم، فنكون لهم الملاذ والمأوى والدار والوطن والحلم والسلام والأمان وكل مرادفات السعادة.

ولتذكروا دائمًا أن الفرق بين الجنة التي حلمنا بها أطفالًا وشبابًا وشيوخًا، والتي نكتبها بفتح الجيم والنون ونجمعها بكلمة جنات وجنان، والتي تعنى الستر من بين معانيها، والكلمة الأخرى التي تكتب بنفس الحروف مع اختلاف كسر الجيم وتشديد النون كبير ومخيف، حيث تعنى الثانية طائفة من الجن.

أدعو الله أن تكونوا جنة لأحبتكم وأن تعيشوا حكاية العمر كله.

حبيب غايب

نعيش الحياة منذ أول لحظة لنا فيها حتى الرحيل باحثين عن الحب والحبيب والونس والونيس والمانح والمعطاء والكريم والسخى والسند، ولعل صورة الوليد الذي يمد يده الصغيرة بحثًا عن أي من هؤلاء هي أصدق تعبير عن ذلك فجميعنا نبحث عن الأمان والسعداء فقط من يجدون يدًا أخرى أو أيادي عديدة تمسك بهم وتتشبث وتجذب بقوة وتتمسك وتحكم قبضتها.

أحدثكم اليوم أصدقائي عن الحبيب والأيام والمشاعر التي تسقط منا وسط الطريق رغمًا عنا فنعيش ننتظر العودة ونتذكر نصائح العجائز في الزمن الجميل عندما كانت إحداهن تجد على وجنتها أحد رموش العين حائرًا أين يذهب؟ وإلى أين مصيره؟ بعد أن سقط سهوًا من مكانه المميز حول العين فتمد أصابعها لتلتقطه بسرعة وتقبله وتضمه إلى صدرها داخل ملابسها هامسة بدلال أنثوى خجول أفقدتنا إياه الأيام والتكنولوجيا والحياة (حبيب غايب) أي إنها ستلتقى بحبيب طال غيابه.

ويجب أن نعطي لهذه الجملة المكونة من كلمتين حجمها ومعناها الطبيعي الذي تضمه بين حروفها قليلة العدد ضخمة الأحلام والمعاني، فالغائب قد يكون نجاحًا أو عملًا أو رزقًا أو ودًا طال افتقاده مع شركاء أو أصدقاء أو أحبة، ومثله أيضًا في المعزة والمكانة

و انتظار قربه الوحي والإلهام للمبدعين من الكتاب والشعراء وكل من يمارس مهنًا تحتاجه وما أقسى الغياب عن الوطن والبحث عنه وعن الأرض والذكريات والبيت القديم وجو انبه و أثاثه والأقلام الملونة الطباشيرية والممحاة من القماش المشدود واللوحة الجدارية للسيدة الجميلة ذات الجسد البلوري والثوب المهدل فوق كتفيها والرموز البدائية التي كنا نتحدث بها ونكتبها على الجدران كرسائل سرية خاصة جدًا.

وعن تجربتي مع تلك المشاعر ورمش العين المتحرك الموحى بالفرحة والسعادة أقول إنه في قصص كثيرة يرويها أطباء أو مساعدون لهم يعود المريض للحياة بعد أن يوشك على الرحيل وبعد أن يتوقف القلب عن النبض لبرهة صغيرة ومما لا شك فيه أن العودة للحياة بعد فترة أشبه بالموت فكرة رائعة وممتعة، خاصة لمن لديه القدرة على وصف هذه المرحلة بوضوح.

وفي علاقاتنا الخاصة من أجمل اللحظات تلك التي تكتشف فيها أن حبك حي يرزق بينما كنت تظن أنه قد انتهى.

لحظة تساوى سعادة العمر كله عندما تعود للعيون بريقها وقدرتها على الحديث والبوح ويذوب ثلج من حول القلوب وتتلون الوجنات بدماء الرغبات وترتعش الأيدي بفرحة اللمسات وينطلق اللسان بأبلغ الكلمات، ففي تلك اللحظات يمكن أن يبوح الإنسان بما شعر ورأى فيقص على الأحبة مشاهداته وما احتوى قلبه الذي كاد أن يتوقف عن العمل ويتركه لحياة أخرى وكيف تمنى أن يعود للأحبة من جديد.

وترجمة لكل ذلك فقد رسمت بأعلى التقنيات ما يمكن أن يحدث لي في تجربة كهذه وساعدني في ذلك العديد من الأقمار الصناعية مختلفة الجنسيات فقد رأيت قصة حياتي وقد تحولت إلى صورة قلب صغير، فداخل قبضة يدي وجدت بصمات تلك الأصابع التي احتضنتها مواسية ثم مندهشة وبعدها عاشقة حبيبة.

وفي الثنايا وأسفل الشريان الرئيسي رسمت علامة مميزة للنظرات الفاحصة المعجبة الخجولة التي عاشت في ذلك المكان في صمت تام عقدين من الزمن.

ووضعت علامات مضيئة في مدخل الشريان التاجي تدل من يقرأ اللوحة على اللحظات الفريدة التي حصلت عليها وحدى دون منازع.

أما البطين الأيمن فزينته بصورة تتحدث فيها العيون وتحكي عن أجمل الذكريات قبل البوح والاعتراف والاندماج وإلى جوارها في البطين الأيسر كانت شهادة ميلاد مؤرخ فيها متى و أين كان أول لقاء.

وفي المخرج الرئيسي للدماء لباقي الجسد الذي أنهكه الشوق والحنين اختلطت كلمات الحب التي تغني بها الشعراء وألحان وموسيقا تحكي قصص وأساطير العشاق ومفردات لم تكتب لشخص سوى الحبيب وألقاب حصل عليها وحده ليتحدوا معًا وينظموا صوت دقات القلب.

فليبحث كل واحد منكم عن صورة الحبيب الغائب وسيجده دون شك ما دام لديه قلب ينبض ويغني ويدندن.

نغزات الندم

من تجارب الحياة اكتشفت أن هناك نوعًا من الألم أشد قسوة من المرض أو الحنين أو الاشتياق لمن غابوا عنا، أو حتى ألم الفشل والخوف من المجهول والبحث عن الرزق وسط العالم الذي أصبح غابة مفتوحة يفتك القوي فيه بالأضعف ويقضي عليه –ألا وهو– ألم الندم ونغزاته، وإذا كانت هناك أنواع عديدة من اللافتات التي تقابلنا في طرق السفر والشوارع التي نسير فيها يوميًا وقد نراها عدة مرات في خلال ساعات ولا نلتفت إليها أو نقرأها، ربما لأننا اعتدنا المشهد والحروف والنقاط وعلامات التساؤل والتعجب أو التحذير والرسومات والرموز والأسهم، واجتاز بعضنا اختبارًا فيها ليحصل على رخصته الخاصة للقيادة إلا أننا جميعًا ننسى ونسهو ونخطئ ونتعرض للخطر والدهس والاصطدام، وقد يفقد البعض الحياة أو يقضي باقي عمره عاجزًا نتيجة عدم حذره وتهوره، فإن التجارب التي تجعلنا فريسة للندم غالبًا ما نقابل قبل الغوص فيها العديد من اللافتات التحذيرية، وقد تكون على شكل نصائح من المحيطين أو إشارات ضوئية تطلقها قلوبنا أو حاسة الحذر لدينا أو صفارات إنذار تملأ آذاننا أو توقعات يشعر بها القلب وتزيد دقاته و انفعالاته بسببها أو ذكريات عن تجارب مماثلة انتهت نهايات درامية وتركت وراءها نغزات موجعة، إلا أن العناد يجعلنا نسقط في تلك البئر من التجارب لنفاجأ أننا نعاني، وإذا أردنا أن نفسر ما نشعر به في تلك اللحظات

فإنه يمكن القول إنه الضمير الذي يسكن في أعماقنا ويتعذب معنا إذا تجاوزت أفعالنا المنطق والمعقول.

أحدثكم أحبائي عن نغزات الندم، التي تغزونا وتدمرنا وتكسر قلوبنا إذا ما وقعنا في أيدي من لا يحسن سكن القلوب، ومن لا يعرف جبر الخواطر، ويحول نفوسنا وقلوبنا وحياتنا كلها لشظايا صغيرة يصعب إعادة جمعها وترميمها، ذلك إذا ما أحسسنا أن اختيارنا كان الخطأ الفادح الذي قد نسدد أعوامًا وأعوامًا من أعمارنا ثمنًا له، كما قد نفقد معنى السعادة وضحكة القلب ورعشة الفرح ونشوة النجاح والقرب والارتواء، وقد تناول علماء النفس والفلسفة الندم بالعديد من الدراسات والأبحاث منها ما قام به (تود ب. كاشدان) الباحث والاختصاصي النفسي والمستشار التنظيمي والمحاضر، الذي أكد أن للندم العديد من التعريفات في علم النفس، فهو الشعور الذي ينتاب الإنسان عندما يدرك أن وضعه الحالي كان سيكون أفضل لو أنه قرر التصرف بشكل مختلف في الماضي، أي إن نظرة إلى الوراء تشعره بعدم الرضا وتدفعه إلى لوم نفسه والتمني لو أنه استطاع إلغاء الماضي أو تغييره، وذكر كاشدان أن هناك خمس حقائق علمية عن الشعور بالندم، أولها ولعل أهمها وأطرفها أن الأطفال أقل من 7 سنوات لا يعرفونه، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الشعور بالندم مسألة إدراك ووعي، وهي متعلقة بالعمر والنضج الذهني للطفل، أي إنها مسألة وقت، ومن ضمن الحقائق التي وصلت إليها الدراسة أن هذا الشعور متعلق بمدى إدراك الشخص لتسلسل الأحداث وتذكر ما فعله، كما أن الندم على ما لم يقم به الإنسان عادة ما يكون الإحساس به أقل نسبيًا من استياء الشخص وندمه من تبعات

قرار اتخذه، التي عادة ما تكون أشد وأكثر تأثيرًا عن قرار لم يتخذه، وبالرغم من ذلك فإن الندم على قرار لم يتخذه الشخص لا يخرج من ذاكرته بسهولة وقد يستغرق وقتًا طويلًا ليتخلص منه، ويؤكد الباحث أن الندم شعور معروف وطبيعي إذا لم يتحول لوابل من الأسئلة المتكررة المعيقة للحياة اليومية، التي لا تفيد في تصحيح المستقبل، وفي قاموس المعاني يقولون ندم على الشيء أي كره ما فعل وحزن، أما الأدباء فقد كتب أحدهم أن الذكريات ما هي إلا ندم ملطف، حماكم الله منه ومن ألمه ونغزاته.

أميرة حبه أنا

وتدور بنا الأيام ببطء وأحيانًا بسرعة فائقة دون توقف وكأنها خلقت داخل إحدى دوامات البحر الغاضب القوي القاتل العنيف في التعبير عن قلقه فندور معها دون رجوع للخلف أو قبول للالتماسات أو تحقيق للأمنيات والأحلام لأننا نخضع لقانون ودستور سماوي لا يمكن المساس به وغير قابل للتعديلات ومن المستحيل أن نجري له استفتاء أو نلتف حوله بطريقة غير مباشرة لتعديل أو تبديل فهو نهائي وثابت إلى الأبد.

وتدور بنا الأيام فأتمنى لو عدت لي من جديد و أتذكر أن من يذهب ويرحل ويغادر لا يعود وهكذا هو دستورنا فلا بديل لك في أيامي ومشاعري وردود فعلي و أفراحي وأحزاني وحتى حيرتي في اتخاذ أي قرار وطلبي المساعدة منك أو اختياره لي أو حتى إرغامي عليه ولا بديل لك في دقة القلب ونغزته سعادة أو توترًا من القلق عليك أو انتظار حضورك أو رؤيتك في الأحلام فأنت النادر الوجود صاحب الامتيازات الخاصة جدًا.

وهل يمكن أن أنسى من منحني الحياة وتوجني أميرة على عرشه وعلمني كيف أسير بين العامة بخطوات أميرات الأحلام ونظراتهن ووهبني ابتسامتهن الساحرة ومشاعرهن ولمساتهن وسخاءهن وحنانهن وتلك القدرة اللانهائية على العطاء والغفران والتماس

الأعذار.

وفي جميع المراحل ودورات الحياة لا أنسى أول ضمة لي بعد أن غادرت رحم أمي فقد كنت أنت صاحبها ويومها وفي أول ساعة لي في الحياة دخلت صدري الصغير رائحة أنفاسك المختلطة بالفرحة والزهو والإعجاب بي وبأناملي وعيني نصف المغلقة وبشرتي، دخلت صدري واختلطت بدمائي التي تحمل نفس فصيلة دمك وكل صفاتك فعرفت من أنا و أكملت عشقك النادر لي فسميتني بأغلى اسم لديك ومنحتني لقبًا شرفيًا يلازمني حتى الآن. واحتفلت بقدومي و انضمامي لكم بأجمل الأغنيات والأصوات والألحان والهدايا.

لو عدت لي حبيبي هل ستمسك بيدي خوفًا عليّ من الأيام والإخفاقات والألم؟ وهل ستصحبني معك كما كنت تفعل دائمًا لأختار و أنتقي وتلمع عيناي بفرحة الأعياد ومقتنياتها والملابس والألعاب والأطعمة والحلوى؟ وهل ستمسح جبيني إن وجدت حبات العرق تلمع فوقه من آثار الحمى والوجع؟ هل ستعلمني كيف أمسك بالقلم مرة أخرى فما زلت من طفولتي حتى الآن لا أجيد الطريقة الصحيحة للكتابة به و أنت من كان يحاول أن يدربني عليها ولم أنسَ ضحكتك حتى الآن على هذا المشهد ولا وصفك لأصابعي بأنها جميلة ولا بد أن تكون لمبدع أو فنان يرسم أو ينظم الشعر أو يصمم الأزياء أو يعزف الألحان ويطرب الجميع.

يا من توجتني أميرة حبك أشتاق إليك وإلى حديثي معك وتشجيعك وكلمات حبك وفرحتك الطفولية وبريق عينيك و أنت تقرأ كلماتي على صفحات الجر ائد وترى صورتي ودرجاتي العلمية. أشتاق لطلبك منى الاهتمام بنفسي و أنت الأولى به والحضور لرؤيتك و أنت الملهوفة

على لقائك وعلى مكاني بين ذراعيك ورأسي فوق كتفك. أشتاق لدعوة كنت أرددها يوميًا في هذا الشهر قبل أن أتناول طعامي (رمضان) لأن دعوة الصائم لا ترد فقد خصصتها لك منذ طفولتي أن تبقى لي بجانبي وأن يمنحك الله الصحة والسعادة ومنذ رحلت أصبحت الرحمة والغفران لك فمنذ أدركت معنى الدعاء من القلب في تلك اللحظات ومعنى أن يعدنا الله بإجابته لم أجد غيرك يستحق هذا الشرف ولا تلك المنحة الإلهية. حبيبي وأميري وصديقي ومستشاري وسندي وفخري وزهوي وصاحب الاسم الذي أحمله وصاحب الفرحة التي لم ولن تتكررولن تصادفني أو تزورني منذ رحلت وحتى في لحظاتك الأخيرة على هذه الأرض كأنك أبيت أن تتركني دون ذكرى لا تنسى فوجدت قلبي وكأن خنجرًا يغرس داخله وروحي تنسحب وتحلق في السماء بعيدًا كالبرق لأفاجأ بعد ذلك بدقائق أنك رحلت في تلك اللحظة وبرغم سنوات طويلة، فإن هذا الإحساس يعيش داخلي كلما تذكرت أنك بعدت ورحلت وتركت أميرة حبك وحدها..

أبي، اشتقت إليك وأحتاجك فانتظرني لأقص عليك، عندما نلتقي، ما حدث لي.

نفوس آيلة للسقوط

في العلوم الهندسية، هناك تعبيرات لغوية تعبّر بصدق ووضوح وجمال عن حياتنا اليومية وعلاقاتنا المتشابكة ونفوسنا وقلوبنا السعيدة والتعيسة والمصابة والسليمة والساكنة في مكانها بين الضلوع، والتي تسير على الأرض وراء الأحبة شوقًا وحنينا وحماية لها وغيرة عليها وذات الدقات المثالية والأخرى المتسارعة والثالثة المتكاسلة التي تعيق وصول الدماء (سر الحياة) إلى مجراها الطبيعي، فتصيبنا بأزمات يعجز الأطباء أمامها مهما كانت خبراتهم وأجهزتهم والشهادات التي حصلوا عليها والزمالات الملكية، عن إنقاذها. ويبدو أننا شركاء في المعاني والتفسيرات والإيحاءات مع الهندسة والمباني والرسامات وأدواتها وطرازاتها، القديم منها والحديث المصنّف كأثر تاريخي تحكي كل لمسة فيه ذكرى من الزمن الجميل، والحديث الباحث عن آخر صيحات الفنون المجنونة وناطحات السحاب، وكذلك ذو العمارة العابثة واللامعقولة والمدهشة.

ومن أشهر تلك التعبيرات التي أحسست بها قريبة إلى بعض النفوس والقلوب التي التقيتها وتعاملت معها وشاركتها التجارب الإنسانية والحياة ولحظات الفرح أو الحزن بكل مسبّباتها ومعانيها، التي تظهر صفاتها وملامحها عارية تمامًا من أي زيف (التصدع- التشققات- الانهيار- الترميمات- اختبارات التربة- المعايير الفنية- المباني شبه الخربة- المباني الخربة- نوع المبنى ومواد الإنشاء).

وإذا كان علم الهندسة والبناء يتعامل مع المباني بتلك الطريقة والمعاني فإن المقارنة السريعة تؤكد أن النفس البشرية هي الأقرب لتلك التعريفات، فالنفس هي الروح، كما أن لها أكثر من تعريف فهي الدم أو الجسد أيضًا. ويعرفها بعض علماء النفس بأنها ذلك النشاط الذي يميز الكائن الحي ويسيطر على حركاته كما أنها القوة الخفية التي يحيا بها الإنسان ويقول فريق آخر من علماء الطب النفسي إنها وظيفة العقل والجهاز العصبي أو محرك أوجه نشاط الإنسان المعرفية والسلوكية والعقلية.

وقد تفاوتت تعريفاتها واختلفت من مدرسة إلى أخرى، فيقول الفيلسوف الفرنسي ديكارت إن النفس موجودة في الدماغ، بينما يصنّفها أفلاطون بثلاثة أنواع «الشهوانية والعاقلة والمرئية».

وفي القرآن الكريم توضح لنا الآيات أن النفس كائن له وجود ذاتي مستقل، فهي الإنسان العاقل المكلف، الذي يتوقع من الخير أو الشر أو الهدى أو الضلال ثم هي الإنسان بجميع مشخصاته جسدًا وروحًا. فيقول سبحانه وتعالى «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي» (الفجر 27 – 30) ويقول «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» (يوسف 53)، ويقول جل شأنه «وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ».

وفي الكتاب المقدس قال الله (لتعج المياه بنفوس حية ولتطير طيورفوق الأرض على وجه جلد السماء)، وقال (لتخرج الأرض نفوسًا حية بحسب أجناسها بهائم وحيوانات دابة ووحوش أرض) (تكوين 20– 24).

وتشير كلمة نفس في الكتاب المقدس إلى حياة الإنسان فقد قال يهوده لموسى (مات جميع الناس الذين يطلبون نفسك). وتؤكد الأيام والتجارب البشرية والعلاقات الإنسانية بجميع أنواعها أن كلًا منا يتكون لديه مفهوم النفس أو الذات والشعور بالتميّز والانفصال عن الآخرين في سن تتراوح بين شهرين إلى ثلاثة شهور عندما يبدأ الطفل في الإحساس بالعالم المحيط به، ومن تلك اللحظة يبدأ في بناء نفسه وإعدادها ويقوم بتشييد البناء وقد يبدع ويؤسس ويتفوق في تجميل المبنى أو قد يخرج به تشققات و انحناءات وكذلك ذو ألوان متنافرة، أو يكون مهددًا بالسقوط ويحتاج إلى ترميمات أو شدات يستند إليها فأدعو الله ألا تقعوا فريسة لأيٍّ من تلك النفوس الآيلة للسقوط، وأن تكونوا من أصحاب التكوينات الهندسية البديعة السليمة والأساسات القوية التي يعتمد عليها المحيطون بكم ويجدون لديها الحب والعطاء والعون والأمان والاستقرار.

حكايات القمر

من أجمل الكلمات والهمسات والأصوات والهمهمات والدندنات والنغمات والإشارات تلك التي تصلك من القمر فإن كنت من محبيه أو أصدقائه أو متابعيه ومر اقبيه والمتفائلين بضحكته ونوره، والذين يصيبهم الرعب والخوف لدرجة الهلع إن اختنق أو اختفى خلف سحابة حمقاء لتنطلق فتيات الريف ذوات القلوب الخضراء التي لم تتلوث بعد بآثار المدينة تغني له وتدق على الدفوف بكلمات أجمل أغنية شعبية مصرية عرفها الفلكلور المصري (يا بنات الحور سيبوا القمر يدور ويا بنات الحور سيبوا القمر ينور) ظنًا منهن أن حوريات الجنة يحاولن السيطرة على حركة القمر والفوز بنوره وضيائه وهدوئه دون شريك، إن كنت من هؤلاء فلا بد أنك سألت نفسك يومًا عن حكايات القمر وكيف يرسلها لنا لنسمعها ونشاهد وجوه أبطالها وحياتهم و أفراحهم و انكساراتهم وعاداتهم وما يحبون أو يكرهون بل ويطلعنا على دفاترهم السرية التي يسجلون فيها مذكراتهم ويخفون بين أوراقها قطعًا من قلوبهم وقصص حبهم البريئة وشهادات إنجازاتهم في العالم شديد القسوة المليء بالمنافسات الشريفة وعكسها.

ولأنني تمنيت أن أكون حكاية من حكايات القمر فقد رصدت ميلاده منذ اللحظة الأولى في اليوم الأول له في دورته الجديدة، فرأيت أجمل ضحكة لحبيب قد لا تتكرر في العمر سوى مرة واحدة، وكان

ضياؤها له بريق ولمعة يخشى الإنسان أن يلمسها فتتلوث ببصمة إصبعه أو يقترب منها بشفتيه فيظهر بخار أنفاسه على سطحها ويطفئ ذلك المشهد البديع، وفي الأيام القليلة التالية ازدادت الابتسامة وظهرت بوضوح كفرحة حبيب بلقاء انتظره كثيرًا وكأنها ترحب بالأغلى والأقرب والأبقى والمتميز وصاحب الحظوة والطلة والدعوات السعيدة، واندهشت عندما اقترب القمر من منتصف دورته وأصبح كما يصفون ويتغزلون وينظمون الشعر ويسبحون مع النغمات من أجله (قمر 14) –اندهشت– لأنني رأيت بيتي وسكني وأمني وأماني ولحمي الأكبر والدفء والحنان الذي بحثت عمري عنه وقد رسمته أنامل فنان بارع على وجهه فظهر واضحًا للعيون، وقد تدرجت ألوان جدرانه بألوان ماء البحر بمختلف عمقها كما لو كانت درجات في الهواء تتعلق عليها مشاريع العمر ورغباتي وكلماتي وكل ما أملك داخل القلب والعقل ووسطها، سطعت حروف تشكلت بحبات اللؤلؤ لأغلى الأسماء و أقربها للقلب، وفي ليلة قمر 14 حاولت ألا تغفو عيناي لتظل مع هذا الإبداع قبل أن ينتقل ليوم آخر وعمر جديد وملامح تحمل رقم النصف الثاني من عمره، إلا أن الحقيقة والواقع قالت كلمتها ودار القمر دورة جديدة وتغير الشكل واللون، وبدأ نصف الدائرة المختفي في الوضوح بالتدريج، وكأن هناك ملاكًا صغيرًا يطوف حوله، وكلما أكمل دورة اتسعت خطواته خارج الدائرة لتقترب من الاكتمال وترتسم علامات حزن على وجه القمر، وكانت حكاية أخرى من حكاياته تقول إنه اشتاق كثيرًا للحبيب وعلامات جنونه وغيرته وكلمات تدليله ورعشة يديه ولقبه المفضل ومخارج حروف اسمه، التي تبدو مختلفة من فمه وبصوته عن أي نداء من آخرين واحتياجاته الإنسانية ومشاركته الطعام وإعداد أوراقه

وملابسه وعطره المفضل وأغنيتهما المشتركة التي تؤكد كلماتها أنهما يتشابهان في كل شيء حتى الملامح، وأنها تنادي الجميع باسمه وتتقاسم معه الهواء الذي يعيش عليه، ويبدو أن آخر الحكايات بدأت تصف حروفها وترسم أشخاصها باللون الفضي فقد وجدت الدائرة تتسع وتتسع والضوء ينحدر على سطح النيل، وتعجبت كيف يمكن لهذا الكائن الرقيق الصغير الذي لا تستمر دورة حياته أكثر من ثلاثين يومًا أن يمر ضوؤه من البر الشرقي إلى الغربي فكانت الإجابة التي قضت على أي فضول أن ما يحدث ويتكرر ويعاد وننتظره دون ملل كل شهر ما هو إلا حكايات الحب والشوق والحنين..

دامت حكاياتكم مع القمر سعيدة وذات نهايات أسعد.

حالة انبهار

عندما تشدو سيدة الغناء العربي محدثة الحبيب وهي في حالة حب وذوبان وانصهار واندماج من شدة الحنين والأشواق وآلام البعاد وربما قسوة الهجر أو الذكريات وصورها التي تضغط بشدة على الجسد والروح معًا، فتقول (كان لك معايا أجمل حكاية في العمر كله)، فإن الكلمات تخرج من بين دقات قلبها المتسارعة في تأنٍ واضح ومؤثر في وقعها على المستمعين، وتظهر فيها واضحة جلية دفقات الدماء متجهة للأوردة والشرايين وكأنها صدى لذلك الصوت العبقري المحمل بالمشاعر بجميع أنواعها مهما كانت متناقضة أو متشابهة أو متصارعة، حيث تحمل أوكسيد الحياة والخلود وتحوله لطاقة إيجابية تصبغ الكلمات بألوان بديعة وتطيل زمنها أو تخطفها بسرعة أو تشددها أو تكسرها أو تضمها ضمة قوية لا تستطيع منها فرارًا، فيصيبنا جميعًا انبهار مختلط بالنشوة، والانبهار هو السر وهو مفتاح الأبواب المغلقة والطريق للقلوب ومن قبلها العقول، ففي البداية لا بد من التساؤل والدهشة وحب الاستطلاع والذهاب لأبعد من ذلك الذي قد يصل للتعجب وينقلنا بالتالي له، ويحدثنا الأدب الشعبي المصري في العديد من أعماله الشهيرة عن إبهار البطل وتربعه على قلوب النساء ووصوله للقمة والخلود بسبب أعماله اللافتة للأنظار، التي تأتي خارجة عن الطبيعة ومعدلاتها وقوانينها، ولعل أخلد مثال لهذه الكلمات ما فعلته شهرزاد مع شهريار في أشهر سلسلة للأدب

الشعبي عندما تعمدت إشغاله يوميًا بقصة جديدة يندمج مع أحداثها و أبطالها ويتعلق بها وينتظر نهايتها فلا يقتلها كزوجاته اللاتي سبقنها لتسجل في التاريخ الأدبي بل والتكتيك العسكري أجمل خطة نسائية للسيطرة والخلود والحب والحياة بمفتاح (الإبهار)، حتى إن أحد الأعمال الفنية التليفزيونية التي حملت اسمها كانت أغنية التتر الخاص بها تقول لشهرزاد (خلى عقله دايمًا في حالة انبهار)، وفي أيامنا كثيرًا ما نقابله في صور متعددة ومختلفة، فقد انبهر أحمد رامي بصوت أم كلثوم فأبدع في اختيار الحروف والكلمات والوقفات واللزمات وبحور الشعر، فكان الثنائي الذي وصل نجاحه للسماء...

كما انبهر إبراهيم ناجي بجمال حبيبته فكتب لها قصيدة (الأطلال)، التي تتناقلها الأجيال بحثًا عن العشق بين حروفها ويتفحصها ويتفهم التوريات فيها دارسو اللغة العربية والترجمات الشعرية، ويدندن بكلماتها الجميع، أما نزار قباني فقد حوله انبهاره بجمال ومشاعر والحياة الناعمة الحنونة الغنية الدافئة مع (بلقيس) حبيبته وزوجته إلى أشهر شعراء الحب والرومانسية، حتى بعد أن رحلت عنه ظل إبداعه لها، ويكفي أن نقرأ ترجمته للانبهار بجمالها عندما قال (سيدتي التي تمر كالدهشة في أرض البشر) و(وإذا وقفت أمام حسنك صامتًا فالصمت في حرم الجمال جمال)، وفي عالم الفلسفة توجد تعبيرات لغوية تعبر أيضًا عن الانبهار، فيقولون (إن القمر يبهر النجوم أي يغمرها بضوئه) (وإن الشمس بهرت البقاع والسهول أي أضاءتها وأشاعت الدفء فيها)، أما الأعمال الدرامية فإن البطل فيها يبهر جمهور المتفرجين، أي يدهشهم لدرجة الحيرة، وإذا أبهر الفتى أقرانه فهذا يعني أنه غلبهم وفاقهم وتفوق عليهم، وكذلك الحال

مع النساء فإذا قيل عن امرأة أنها بهرت صديقاتها، فالمعنى هو أنها غلبتهن حسنًا.

وعن نفسي أقول لكم أحبتي إن الانبهار له دور كبير في حياتي فقد بهرني حب الخير والعطاء ومردوده اللحظي والآجل والوعود السماوية به، فتعلمته من المحيطين وبهرتني الأوراق والأقلام والكلمات فكان عشقي للكتابة والعمل بها، وعندما رأيت ردود أفعال المعجبين بالفن والإبداع والرسم والألحان والغناء والدراما والعلوم قضيت حياتي وما زلت أحاول الاقتراب من أي منها لأتذوق تلك المشاعر الر اقية. فهيا أصدقائي وأحبائي أبهروا من حولكم والدنيا كلها بما لديكم لتعيشوا دائمًا في حالة انبهار.

خاص جدًا

المشاعر الخاصة تطيل العمر وتغيّر الملامح للأجمل والأنضر، وتعطي للوجه نورًا وسحرًا لا تخطئه العيون، وأعني بها المشاعر الإيجابية بأنواعها، فهناك حب العمل وحب الدراسة وعشق الأوراق الخاصة والأقلام الملونة التي تلعب بمشاعر صاحبها إن خطّ بها أي خطوط أو حاول رسم ملامح الأعزاء، أو كتب حروفًا متشابكة تشير إليهم دون أن يدركها أحد، ولغة الحوار المشتركة بينك وبين الحبيب برموزها وطلاسمها التي تختارونها معًا وتتبادلونها وسط العالم كله دون شريك، وكذلك الأمر مع الأصدقاء والأبناء والبيت والحبيب الذي يؤنس القلب ويسعده والركن الخاص بك والعصافير التي تزور شرفتك وتتحدث إليك وشجرة الياسمين التي تبهج بيتك كله وتعطره وضحكة الصغير في المنزل المجاور لك والتي تسمعها فتبادله الضحكات وتفتقدها إن غابت عن سمعك وتبحث عن سر اختفائها والمباني المحيطة بك والتي تر اقب أي تغيير يطرأ عليها بعيون محبة لكل ما هو خاص جدًا بك حتى لو كان مشهدًا لا يشاركك فيه أي شخص يعيش معك.

ومن المدهش أن تجد المشاعر الخاصة الحزينة تضيف لوجهك أيضًا سحرًا وغموضًا، وربما نوعًا نادرًا من الجمال لأن كل ما يسكننا من مشاعر لا يشاركنا فيها أحد هو نوع من المتعة لا يدركها إلا من اعتاد عليها و آنسته في ليالي وحدته أو غربته الحقيقية أو تلك الغربة

التي يمكن أن تغزو الإنسان وتحاول الفتك به وهو في وطنه وبيته وفراشه.

وهناك فارق كبير لا يدركه إلا صفوة البشر بين ما تملك وما لدى الآخرين بين الخاص والعام والمشاركة والمنافسة والتدخل ومحاولة الاستيلاء على ما لا يملك ولا يحق له أن يتسلل إليه أو يحاول الاستيلاء على جزء منه، حتى لو كان في أعماق الآخر يحتفظ به بعيدًا عن العيون المتطفلة الجريئة الباحثة دائمًا عن ممتلكات الغير.

وتتكرر هذه الكلمة في عالم السياسة والفلسفة، حيث يقول المتخصصون في النظريات الفلسفية إن الخصوصية هي قدرة الفرد على التعبير عن نفسه بطريقة انتقائية ومختارة وإن هذه الكلمة تشير إلى نطاق الحياة الخاصة، حيث تختلف الثقافات والأفراد في الحدود الفاصلة والمحددة لما يعتبر خاصًا لكنها تشترك في الأفكار الرئيسيّة إلا أن معظم الأشخاص، أو يمكن القول الجميع، لديهم إدراك قوى بالخصوصية الشخصية، كما أن الأطفال عندما يتعلمون تصبح لديهم القدرة على السيطرة على مَن يدخلون حياتهم ويتعاملون معهم وإلى أي مدى، وهم بذلك يعبرون عن مفهوم استقلال الذات لأنفسهم.

ومن أكثر المعلومات طرافة وأهمية إذا انتقلنا للسياسة أن تجد مفهوم (الخاص جدًا)، وحق عدم التعرض لانتهاكات غير قانونية من قبل الحكومات في قوانين كثير من الدول، وفي دساتير البعض منها أيضًا.

إلا أن أغلب الدول حاليًا لديها أيضًا قوانين تحدّ من الخصوصية في العديد من المجالات وبطرق متعددة، وعلى سبيل المثال حرية التعبير والقوانين المتعلقة بالضرائب والتي عادة ما تتطلب مشاركة معلومات عن دخل الشخص وأرباحه وأملاكه، وفي العديد من الدول تتعارض الخصوصية الفردية مع قوانين حرية التعبير، وقد تتطلب الأوضاع السياسية بها الإفصاح عن معلومات تعد خاصة في أماكن وثقافات أخرى، ولعل البحوث المتعلقة بالراشدين في المؤسسات العقابية والإصلاحية والتي أعدها الأمريكي (أرفينج جوفمان) و أثبتت أن الانتهاكات أو الحرمان الممنهج والروتيني للخصوصية تفسد مع الوقت حس الشخص في الاستقلال.

ويعد مفهوم الخصوصية الفردية العالمي حديث النشأة، ومرتبطًا بشكل كبير بالدول الغربية، وعلى وجه التحديد البريطانية وثقافة أمريكا الشمالية، وقد ظل غير معروف في بعض الثقافات حتى وقت قريب.

وبعيدًا عن السياسة وعلم النفس وشبكات التواصل الاجتماعي والسجلات المدنية وملفات المعلومات الشخصية، فإن أجمل وأصدق ما قرأت وسمعت عن موضوع مقالتنا اليوم كان بصوت المبدعة (أنغام)، وهي تقول: (أنا و انت حالة خاصة جدًا)، فاسمعوا و اقرأوا واختاروا ما يناسبكم من الخصوصيات.

شاحن القلوب

في ألبوم الذكريات لقطات ولقطات بينها أيام وسنوات وعقود، إلا أنها جميعًا بألوانها الزاهية أو الباهتة أو البيضاء والسوداء أو المائية التي تكاد تذوب الصورة بين ألوانها متداخلة كالأمواج الهادئة الحركة أو حتى المظللة التي تنعكس فيها الألوان، والتي كنا نطلق عليها كلمة (عفريتة) أو (نيجاتيف)، قبل ظهور الدجيتال والفوري والمجسم وثلاثي الأبعاد، كلها ترسم تاريخ كل منا والانتقال من مرحلة لأخرى، ليس في الحياة أو الملامح فقط بل إنها تتحدث وتصف وتبدع، وقد تخرج نشازًا أو صوتًا حادًا كالصراخ أو موسيقا حالمة ناعسة عند الحديث، لأن كل ما تخرجه هو نحن وحكايات العمر كله ومشاعرنا وعلاقاتنا و انفعالاتنا والحقيقة التي نحاول تجميلها أو إخفاءها عن العيون أو إضافة بعض المحسنات لها، ومن ضمنها الأفراح والأحزان والمجاملات الاضطرارية والواجبات شديدة الثقل والقسوة، والأخرى العزيزة على النفوس والعقول التي تمنينا لو لم نغلق صفحاتها أو ننتقل لصفحة أخرى ونغادرها وحاولنا التشبث بما بقى منها.

كما أن هناك من بينها صورًا عندما تراها تفاجئك ابتسامة لا تعرف من أين جاءت تفاصيلها، ولا كيف رسمتها شفتاك وعيناك وكل خلجات وجهك وأصابع يديك وخطواتك وهزات جسدك وخصلات شعرك، وتلك الدمعة اللامعة الساكنة على طرف العين المترقبة المنتظرة المستعدة للانزلاق على وجنتيك وكل لفتة أو انحناءة منك،

فكل هؤلاء ينضمون للابتسامة ولا تستطيع تجاهلها أو السيطرة على كم الحب والسعادة والانتماء التي تحتويها وتفيض منها، ولا تملك أمامها إلا الدعاء والحمد على تلك الهبة في حياتك، وهي صاحب الصورة دون شك، فلكل منا أشخاص لا نملك أمامهم إلا الابتسامة أو فلنقل إن انعكاس صورتهم في المرآة هو ابتسامة القلب والحياة والدنيا كلها والسماء بنجومها وقمرها وشمسها وجميع الكواكب التي تدور وتدور ولا تتوقف إلا عندما ترى صاحب الصورة، فعندما تلمحه تتوقف برهة لا يمكن قياس زمنها لأنها خاصة جدًا وثمينة ونادرة ولا ينطبق عليها أي من الأسماء العلمية أو الزمنية القديمة أو الحديثة، وفي ألبوم الذكريات هناك بينها تلك الأوراق التي قد يحتاج بعضها لأجهزة ترميم الأوراق ذات التقنيات العالية التي يستخدمها مرممو الآثار القديمة الثمينة في المتاحف والمكتبات الأثرية توجد صورة (شاحن القلوب)، ومما لا شك فيه أن ملامحه وسماته الخاصة تختلف من واحد لآخر، إلا أن قدراته معروفة ومشهورة لدى الجميع، فهو الذي يهبنا القدرة على الاستمرار والعمل والحياة والسير وسط آلات الزمن التي تعدو وتعدو ولا تنتظر المتعثرين أو المتباطئين الكسالى أو من ترهقهم أحداث اليوم، وبرغم معرفتنا المسبقة به إلا أن هناك اختلافًا وتفاوتًا من شخص لآخر وبين متلقى الشحن أيضًا، ويبدو أننا تماشيًا مع أحدث صيحات العصر الذي نعيشه أصبحنا نتشابه مع أدواتنا الإلكترونية التي لا تعمل دون تلك الشواحن بأنواعها المختلفة، فعند شرائنا أحدها فإننا نبحث عن التوافق والتكامل والسهولة بين الأجهزة حتى لا نعاني عند فقد أي منها شاحنه، كما أننا نبحث عن تلك الأجهزة فائقة السرعة في تلقى الشحن ونبتعد تمامًا عن المتلقي البطيء، وفي عالم الإلكترونيات

بدأت كبرى المصانع تتجه إلى العديد من المتغيرات وإلى أحدث صيحات في التصنيع، التي تركز على أن يكون لكل جهاز حديث من بين قدراته العالية القدرة على تلقي الشحن من خلال منفذ يتوافق مع أغلب الماركات العالمية لتتوحد أجهزة الشواحن، وإن كان هذا هو حال الجماد والإلكترونيات فإنني لا أتصور أن تتشابه شواحن قلوب البشر مهما حدث في العالم، فأرجوكم أصدقائي وأحبائي أن تبحثوا وتختاروا وتتمهلوا وتتأملوا جيدًا قبل أن يقع اختياركم على شاحن القلب الخاص.

أعانكم الله على حسن الاختيار ومنحكم الأرقى والأجود والأقوى والأبقى والأجدر والأعز والذي يستحق أن يحصل على ذلك اللقب.

هلة وطلة

في كتب العشق والهوى ودواوين الشعر، التي تتحول بعض كلماتها لأغان وألحان وسيمفونيات، وربما لوحات زيتية ترسمها أقلام هواة الألوان المبهجة والقاتمة والسماوية والمتلألئة، والخطوط الطولية والعرضية والزوايا والانحناءات والدوائر وجميع الأشكال الهندسية، التي تتحدث هي الأخرى عندما تقترب من بعضها أو تتداخل وتتقاطع وتتوازى، وتقف صفوفًا منتظمة في لوحات تعيش سنوات وسنوات بين أجيال، وتظل هي أيقونة السعادة والسلام النفسي والارتواء لكثير منا، لأنها هي التي تتحدث وتحكي وتردد حكايات الحب والغرام والهيام والأحبة ومن توجوا على عروش القلوب وجلسوا واستقروا وتحكموا في دقات القلوب وسرعتها وذبذبتها وصوتها ولذتها أو ألمها الناعم الطويل أو أحلامها، التي هي في الحقيقة أحلام يقظة، ينسجها الحبيب ليزيد ساعات الونس ويطيل الحوار مع حبيبه ويتلذذ بدلاله أو خصامه واعتذاره وعودته كل مرة بمشاعر أكثر وأنعم وأعمق وأجمل وألذ.

في هذه الكتب ذات الأوراق الملونة والرائحة الذكية احتار المبدعون في اختيار أوصاف الحبيب وعلامات الجمال ما بين البشرة السمراء أو البيضاء والأقرب للخمرية والعيون الدعجاء أو السوداء أو الزرقاء أو العسلية، وتفنن الشعراء في وصف أميرات الأحلام ما بين الهيفاء إلى الغادة والمرمورة والحسناء والغيداء والبضة

والسرعوفة، ولأنني من عشاق اللغة العربية وتركيباتها ومرادفاتها ومعانيها وأسرارها، فقد وجدت أن من أجمل ما يمكن أن تصف به الحبيب أن تقول هو صاحب (هلة وطلة)، بتشديد حرف اللام في كلتا الكلمتين، فهناك أشخاص قد تلتقي بهم في طريقك دون سابق إنذار أو توقع أو احتياج أو بحث وتنقيب ومسح ذرى للمحيطين بك والملتفين حولك، أو هؤلاء الذين يحاولون اللمس أو الاقتراب –هناك– منهم من لديه هلة وطلة.

وحتى لا تتعجب أيها القارئ أقول إن الهلة صفة تطلق على الثوب الشفاف الرقيق أو تستخدم عند رؤية الهلال وقت ميلاد القمر، فنقول (هل هلاله)، أو هل الرجل أي فرح أو هل المطر أي اشتد، أما السحاب إذا وصفوه بأنه هل بالمطر، فهذا يعني أنه قطر مطرًا له صوت ناعم.

واستكمالا للجمال والارتقاء والارتواء نقول إن كلمة «طلة» بالشدة على حرف اللام، هي صفة إذا اقترنت بالرائحة تعني رائحة لذيذة وشهية، وقد تعني المظهر أو النعمة في المطعم والملبس، والطل هو المعجب من كل شيء واليوم الطل هو اليوم الرطب الطيب، فأي جمال وسخاء في الحسن أن تجد صاحب الهلة والطلة هو الحبيب، وأن تفاجأ بعد سنوات أنه قد تسلل وعاش واختبأ في تلك المنطقة الدافئة العميقة المعنى القريبة تحت أولى طبقات جسدك وسط الشعيرات الدموية الدقيقة التي تهبك الحياة، وأنه لم يكتف بذلك بل قام بتغيير فصيلة دمك التي سجلت في أوراق هويتك الرسمية وعرفك بها الأطباء والأهل وأصحاب النسب وشركائك في العصب، قام بتغييرها ومنحك خاصته هو! فأصبحت داخله أو العكس دون

أي تدخل خارجي سوى تأثير الهلة والطلة، التي لا تقاس إلا بقدرتها العجيبة على إحداث الدهشة ورسم علاماتها العديدة على ملامح من يلتقى به.

ولأصحاب هذه الصفة الجميلة حسن مستتر وتأثير عميق ولهم تشرئب الأعناق في أي مكان يذهبون إليه، وإلى جوارهم يشعر القريب بالدفء والسعادة قبل الإعجاب والافتتان، ولا يستطيع من يجالسهم أو يقترب منهم التحرر من تأثيرهم عليه، حيث ينطبق عليهم ما قاله الشاعر نزار قباني (بعض الهوى لا يقبل التأجيل).

متعكم الله بصحبة أو صداقة أو حب أو قرب أو نسب صاحب الهلة والطلة.

«خد وهات»

عندما تفاجئني كلمات نزار قباني بصوت عبد الحليم حافظ، الذي يحمل بين الحروف أطنانًا من مشاعر العشق والعذاب والحنان والتوسل والتمني والانتظار والحنين والبحث عمن يتسرب من بين أصابعنا، كما لو كان مياهًا، وليس مشاعر، أو حبًا، أو صداقة، أو قرابة دم، أو أمومة، و أبوة، أو حتى مصاهرة ونسب –عندما يفاجئني بأجمل تعبير لغوى كتبه إنسان، وهو يدعو الحبيب للحصول على ما يريد وقتما وكيفما يشاء– «إن كنت أعز عليك، فخذ بيدي فأنا مفتون من رأسي حتى قدمي»، فإن التساؤلات تهاجمني عن هذا المعنى الراقي الفصيح والبليغ للعطاء، فالحبيب في ذلك التعبير يخشى أن يكون هناك سوء فهم لموقفه، ويتمنى لو قبل الآخر بأن يمد يده له بما يملك.

و أتأكد في تلك اللحظة أنه من أصعب المعادلات التي نحاول أن نطبقها في حياتنا كي نستطيع أن نتذوق معنى السعادة والرضا عن النفس والحب والمنح والاكتفاء والارتواء هي كيف نعطى، ومتى، ولمن؟ ويبدو أن هذه المعادلة أخذت الكثير من اهتمام الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع منذ قديم الزمن، حيث تحدث عنها الفيلسوف سيجموند فرويد، فأكد أن الإنسان الذي يمكن أن يوصف بالمعطاء، وهو الذي يساعد من حوله دون انتظار مقابل يكون عرضة للاستهلاك النفسي والصحي إلا أنه على المدى البعيد

يكون الشخصية الأكثر نجاحًا وتأثيرًا في العديد من المجالات، وأرجع ذلك إلى عدة أسباب أهمها نوعية العلاقات التي يخلقها المعطاء من حوله، والتي تساعد على جعل النجاح شيئًا (معديًا) يصيب الجميع، ويدفعهم لمساندة نجاحه هو. بعكس الشخص الذي يمكن أن يوصف بالأخّاذ والذي يبنى نجاحه على إنقاص شيء ممن حوله، ويخلق عداءات. الأمر الذي يمكن اختصاره في جملة واحدة تقول: «إذا أردت أن تكون ناجحًا، فكن معطاء».

واستمرارًا للاهتمام بهذه المعادلة المحيرة، قام د. آدم جرانيت، المتخصص في علم النفس المنظمي، والذي اختير عام 2015 واحدًا من الـ25 مفكرًا الأكثر تأثيرًا في العالم بدراسة تحليلية مستفيضة للعديد من الدراسات العلمية النفسية في العالم، حتى وصل إلى نتائج غير متوقعة وثورية في موازين النجاح التي تعوّدنا على سماعها، حيث توصل إلى أن الشخص المعطاء يأتي في أعلى سلم الأشخاص الناجحين في الواقع العملي، ويليه الشخص الأخاذ، أو الأناني، حيث قدم نتائجه في كتاب بعنوان Give and Take، صدر عام 2013 وصار من أفضل الكتب مبيعًا.

وقد خلصت نتائج هذا الكتاب إلى أن الناس من حولك يمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات: «الأخّاذ»، وهو الذي يسعى لأكبر قدر من الاستفادة مما حوله، و«المعطاء» الذي يساعد من حوله دون انتظار مقابل، و«الموازِن» الذي يقع بين الاثنين، ويعطي على قدر توقّعه من الأخذ.

ويبدو أن الشعراء والمطربين والموسيقيين يسيرون بإبداعاتهم في اتجاه علماء النفس نفسه، ويصلون لنفس نتائجهم وإن اختلفت

طرق التعبير، ومن أصدق الأمثلة على ذلك كلمات الشاعر إبراهيم ناجي: «أعطني حريتي أطلق يديّ.. إنني أعطيت ما استبقيت شيئًا) والتي يملؤها صوت أم كلثوم بإحساس الندم والألم من الحرمان، وأطلق لها العنان إلى السماء الموسيقار رياض السنباطي بألحانه، والتي تؤكد صحة ما يقوله الحكماء بأن الإنسان يصبح الكون نفسه عندما يعطي، ويمنح بسخاء وسلاسة وحب، وأن من يريد أن تمنحه السماء ما يريد، فعليه أن يعطي الآخرين بالطريقة نفسها، و أنه إذا أنفقت أو ساعدت شخصًا، فساعده بحب ويسر، ولا تفكر كثيرًا ولا تدقق.

وفي قاموس المعاني للغة العربية تأتي كلمة «هات» كاسم فعل أمر بمعنى أعطني. وتكون مرادفاته المنحنى، أو ناولني، وعندما يقول أحدهم: «هات يا رجل»، فإنه يقصد: قل ما عندك، والشيء نفسه مع المرأة.

ولكم أقول أحبائي وأصدقائي إياكم والأخذ دون عطاء، فالقلوب والنفوس تتأذى من الحرمان والقسوة، وحاولوا أن تنجحوا في تلك المعادلة لتَسعدوا وتُسعدوا أحبابكم وتكونوا من المعطائين.

وأنت عني بعيد

البعاد له مرارة وقسوة وآلام ومذاق لا يخطئه أي إنسان وجميعنا أحسسنا به حتى وإن اختلف من شخص لآخر أو من زمن لما سبقه أو لما سيأتي بعده ويلحقه وينافسه في البقاء وترك الذكريات والعلامات والأحلام والحكايات.

البعاد يعلمنا ما هو الحب والحنين والشوق والاعتياد والنسيان وكيف نستحضر أحاسيس عبرت علينا ونحاول إبقاءها ونصر على الغوص داخلها كما لو كانت موجة من موجات البحر القوية التي تلفنا ونستمتع بدخولها ونرفع وجهنا للسماء لثوانٍ قليلة بحثًا عن أي نسمة هواء لحظية تبقينا على قيد الحياة ونعود من جديد وسطها في سعادة واستمتاع ونتمنى لو قضينا حياتنا هكذا كنسمة هواء وحضن وسط الماء وحلم بالوصول للقمة وآخر بالنزول تحت الماء حتى قاع البحر.

ويبدو أن البعاد يوقظ داخلنا أشياء كثيرة ويعلمنا أن الألم شيء بديع وليس كله قاسيًا فهناك آلام لها مذاق خاص جدًا يكاد يقترب من اللذة ذلك عندما يكون هناك يقين أنها الطريق الوحيد للوصول للأحبة أو الأهداف أو النجاح أو تحقيق الآمال، مثل ذلك الإحساس الغريب المتضارب الممزوج بجميع المشاعر عندما تجد الطائرة تلامس أرض الوطن بعد سنوات من الاغتراب أو آلام المخاض التي

تمزق الأم لكنها تتلهف عليها لترى وليدها وتحتضنه، ومثلها تلك التي تهاجمنا من الإجهاد ومواصلة الليل بالنهار للاستمرار في العمل من أجل المنصب والمال وإسعاد المحيطين والأحبة، وحتى الصغار يعيشون تلك اللحظات ببراءتهم ومشاعرهم النقية في انتظار عودة الأم من غياب والإحساس بضمتها التي لا تساويها أخرى طوال الحياة. أو رؤية الشقيق الذي ابتعد أيامًا أو الطعام الذي أحس باحتياجه الشديد إليه.

و أنت عني بعيد أجمع أسماء جميع الكتابات التي قرأتها ودواوين الشعر التي حفظت كلماتها والأغاني التي حلمت بعودتك على ألحانها وأحسست بفرحة النجاح مع هتاف مطربها وارتديت ثوب عرسي على إحداها واستقبلت وليدي مع دقات الأخرى وعلمته السير والنطق وأمسكت بيده من الهواء على نغماتها.

و أنت عني بعيد أتعجب من عدم وصول رسائلي إليك بالرغم من أن الجميع يقرأها ويتبادلونها كهدايا في عيد الحب ويجدونك بين السطور وفوق الهمزات وتحت الكسرة ومع التنوين ويضحكون ويتغامزون ويقولون إنني أعاني آلام البعاد.

و أنت عني بعيد بحثت وتعلمت وقرأت وعرفت أن هناك جمعية مصرية لعلاج الألم أنشئت منذ 25 عامًا وأن الهدف منها زرع ثقافة الذهاب للطبيب لتخفيف أي نوع من الآلام وأن مهمة هؤلاء معرفة السبب وتوجيه المريض للمختص.

وعرفت أيضًا أنه في عام 2007 أصدرت جمعية طبية تابعة لمنظمة الصحة العالمية منشورًا يقول إن التخلص من الألم حق

من حقوق الإنسان وهو ما جعل العالم كله يتجه إلى البحث في الطرق الحديثة لعلاج الألم و أنشأت كل الدول الأوروبية وأمريكا مراكز متخصصة في علاج الألم.

و أنت عني بعيد و أنا أبحث عن علاج لألم البعاد وجدت أن جمعية أطباء الألم المزمن المصرية تعلن عن إقامة ورشة دولية لعلاج الألم للتدريب والتوعية لصغار الأطباء والمهتمين.

كما وجدت وحدة للألم بأحد المستشفيات الجامعية المصرية وجمعية أخرى في المملكة العربية السعودية تحمل نفس الاسم وتعمل من أجل نفس الهدف.

و أنت عني بعيد وجدت تعريف كلمة الألم بأنه ظاهرة متعددة الأبعاد ويتضمن جوانب معرفية ووجدانية وحسية وبيئية سواء في وجود أو غياب الأسباب الباثولوجية فأدركت في تلك اللحظة أنك أنت الألم و أنني لو جمعت أسماء أوراقي التي تضم (نفوس آيلة للسقوط- شاحن القلوب- خدوهات- حالة انهيار- جملة وضمة- فطام إرادي- فن التدمير- مشاعر قسرية- حكايات القمر- خاص جدًا- قذائف الخوف- قضية تزوير- عندما تجهم القمر- أميرة حبه أنا) فستكون هي قصتي مع الألم.

سحر اللمسات

هناك أشخاص لديهم ملكة ثمينة ناعمة فصيحة ذكية معبرة دافئة ومنعشة في نفس الوقت، تمنح المحيطين بهم أمانًا وتوليفة بديعة قوية من المشاعر الإنسانية، التي تأسر النفوس والقلوب معًا، وتستحوذ على جميع الانفعالات والحواس، فتعطي أطفالنا مناعة وتساعد على نموهم بسرعة وترسم الابتسامة على وجوه النساء وتمنح الرجال قوة نفسية تساعدهم على مقاومة ضغوط العمل والحياة وتلقي الصدمات بثبات واستقرار وحل جميع المشاكل بهدوء واضح وصريح، ولا يتوقف الأمر عند ذلك فقط، فقد وضعها علماء النفس تحت البحث والتمحيص وكذلك أطباء القلب والأعصاب والشعراء والكتاب، حتى إن أحد المؤلفين الشهير (جاري تشابمان) أفرد لها فصلًا كاملًا من كتابه الذي حقق مؤخرًا أعلى نسبة مبيعات على مستوى العالم وترجم لعدة لغات وهو (لغات الحب الخمسة)، أحدثكم اليوم أحبتي وأصدقائي عن التعبير البليغ باللمسات، واللمسات من أجمل وسائل التواصل بين جميع المخلوقات على وجه الأرض، البشروالطيوروالحيو انات، ولعل صور عالم الطبيعة الساحرة، التي تجسد تلك المعاني بحثًا عن الدفء من قسوة الطبيعة أو الأمان والحب والتزاوج والأمومة، هي أصدق دليل على ذلك، وفي هذا الفصل من كتابه ينصح تشابمان المحبين قائلًا (احرص على أن يكون خزان الحب لديك ممتلئًا دائمًا) ولا بد

أن تعرف أن لمسة يد تختصر نصف كلمات الحب وتعبر عن جميع المشاعر، فقد يسلم أحدهم عليك بعد فراق سنوات فيربت على يدك بقوة ويحتويها بين يديه الاثنتين فتشعر بمدى اشتياقه لك ووحشته، أما إذا عقد يديه فوق يديك وضغط ضغطة واحدة فكأنه يحتويك ويواسيك...

ومن المسلمات لدينا جميعًا أننا لم ولن ننسى ضغطة يد الأم وهي تحتضن كياننا الصغير لتعلمنا كيف نخطو أولى خطوات الحياة، وتحدثنا لمساتها وأصابع يديها وتشجعنا وتحتوينا، ويبدو تشبثنا بها في تلك اللحظات وكأنه ترجمة لما يعجز اللسان عن ذكره وسط صعوبة النطق والتعبير اللفظي، وإذا كان الشعراء يصفون اليد ولمساتها بأنها (البوابة الملكية) التي يدخل منها كل عاشق إلى عالم معشوقه بإرادته الحرة وبوعيها الفطري التلقائي، ويشترك الأطفال والكبار في الاحتياج للمسات الصادقة، فقد أثبتت دراسة كندية في جامعة ماكجيل أجرتها طبيبة تدعى (سيليست جونستون) في مونتريال، أن الأطفال الرضع الذين تلمسهم أمهاتهم يتوقف الشعور بالألم لديهم في حالات الحقن للعلاج بعد دقيقتين، في حين أن الآخرين يعانون فترة أطول 3 مرات.

وحتى في الملاعب والمصحات والمؤسسات الرياضية وجد الأطباء أن المساج له تأثير جسدي ونفسي مريح، حيث يعمل على تحسين الحالة المزاجية وتنشيط الدورة الدموية وإبعاد مشاعر العزلة النفسية، أما المرأة فقد أكد علماء النفس أن المعالجة بالروائح العطرية والأعشاب والمساج يكون لها تأثير أكبر بكثير من الرجال عليها، بل إنهم توصلوا إلى أن جلسات العناية بالبشرة

والمانيكير في محال التجميل لها تأثير كبير على الحالة المزاجية لها، لأنها تعطي لمسات تواصل مع الغير وطعمًا جديدًا للحياة.

وفي عالم المحبين فإن اليد عادة ما تتخذ الدور الأول، لأن لديها القدرة على إقناع الحبيب بما تقوله، بل إنها تسحره ليستجيب لها، فهي وحدها مجازًا ابتكرها الخالق ليقارب بين القلوب، فعادة لا تقول اليد كلمة لها معنيان ولا تقف عاجزة أمام اختلاف الأعراق والبلدان واللغات، كما أنها لا تحتاج للقسم إذا ما تحدثت، فحديثها صادق لا ريب، والكذب مهارة لم تتعلمها اليد بعد، ولكم أحبتي أقول أيها الآباء والأمهات والأزواج والزوجات أكثروا من اللمسات لأحبتكم والتربيت عليهم والضغط اللطيف على أيديهم، فما أروع أن تشبع أحبتك وأن تخفف آلامهم وتمنحهم المناعة ضد قسوة الأيام وإخفاقاتها وآلامها، ولتملأوا خزان الحب لديكم دائمًا، بحثًا عن السعادة لكم ولهم.

تقويم العشق والهوى

في قوانين الحب والعشق والهوى يخلق كل محب تقويمًا خاصًا به يشاركه فيه توأم روحه وساكن قلبه أيًا كان نوع هذه العواطف والمعزة والقرب والانسجام والألفة وتبادل الخواطر واللمسات والهمسات، فيكون التقويم حافظًا للذكريات ومواعيد اللقاء وأولها والنظرات وتطورها وتحولها وزيادة الحميمية بها ورسائلها التي لا تصل إلا للمحب وأوقات سماع صوته ومشاهدته، والغوص داخله للبحث عن غذاء ودواء، والهواء الذي يستنشقه، والأحلام التي يراه فيها والأمنيات الناعمة السعيدة له، وأسماؤه الخاصة جدًا التي يناديه بها ويسجلها له في شهادة ميلادهما معًا، وتاريخ ميلاده هو وسنة التحاقه بمدرستهما الخاصة التي لم تنطبق شروط الالتحاق بها إلا عليهما فقط ولغتهما الأم وحروف أبجديتها التي رسماها معًا ووضعا لها قواعد لغوية فريدة للنحو والصرف وقاموسًا للمعاني المتبادلة يحكمها الشوق وألمه ونغزاته ولذة الاقتراب وحلاوتها والحنين الجارف وملمسه داخل الأجساد والعقول...

فكل نبضة قلب هي جزء من ذلك التقويم الخاص جدًا قد تكون مقدار طرفة عين أو ثانية أو دقيقة أو ساعة أو يوم وليلة أو إشراقة شمس أو غروبها أو زمن ومضة من ضوء نجمة حائرة تجوب السماوات باحثة عن نغمة حزينة أو عيون شاعر تقتله صعوبة الكلمات التي تحمل رسائله للحبيبة فتواسيه وتساعده للحاق

بالكلمات والفصلات والوقفات وبحار الوزن الهاربة منه.

وبلغة القرن الواحد والعشرين وثورة الاتصالات والعالم الذي فتح موجات أثيره على مصراعيها لمن يريد أن يرى ويسمع ويراقب، أقول لكم إن التقويم له تاريخ علمي ولم يظهر بطريقة عشوائية بل هو نظام لحساب التواريخ للأيام وتنظيمها لأغراض اجتماعية أو دينية أو تجارية أو إدارية ومما لا شك فيه أن الأغراض العاطفية هي أساس الحياة الاجتماعية، فعيد الحب أهم لدى المحبين من أي عيد آخر وقد يتساوى معه تاريخ البعاد أو الهجر أو العودة.

وعادة ما يتم إعطاء أسماء معينة لفترات من الزمن قد تكون أيامًا أو أسابيع أو أشهرًا أو سنوات وتكون تلك الفترات متزامنة مع دورة الشمس في السماء أو بالأدق موقع الأرض في مدارها حول الشمس في السماء أو مع ميلاد ونهاية القمر، والتقاويم الزمنية هي نتاج قرون عديدة من الدراسة الدؤوبة والتجارب المستمرة والمعتمدة على المحاولة والخطأ فعندما بدأ الناس في مراقبة الأجرام السماوية كوسيلة لقياس الوقت لاحظوا أن الشمس تبدو تتحرك دائمًا في السماء أما القمر فيقوم بدورة خاصة به تستغرق أيامًا.

وبدون دراسة لعلم الفلك ومعادلاته وقوانين الجاذبية الأرضية ومسارات النجوم والنيازك يسجل القمر اسم تقويم الأحبة كل حسب اختياره وميلاده فمن رأى وجه الحبيب وملامحه وضحكته مع ميلاد البدر يختلف عن ذلك الذي سجل أول دقة لقلبه مع اكتمال القمر وظهوره جليًا مستديرًا كما يختلف عمن بدأ رحلة الغرام مع أول شعاع للشمس وقت ميلادها أو آخر ضوء لها مع الغروب.

ومن المؤكد أن التقاويم التي نرددها جميعًا ونتعامل معها على الأوراق أو صحف الحائط أو الصحف الورقية هي نظم للعد الزمني كما يوجد أنواع أخرى مماثلة لتلك الأدوات فلدينا التقويم القمري والهجري والمصري والأكادي والفارسي والبهائي وهناك شهور السنة الهجرية والمصرية والأوروبية والمغاربية وتلك هي و اقعنا وحياتنا اليومية بعيدًا عن تشبيهات المحبين والشعراء وعالمهم المجنون ومشاعرهم التي ترسم تقويمهم وتسجله بأقلام مدادها من دموعهم حيث يقول نزار قباني في تقويمه الخاص جدًا: (أحبك في اليوم ثلاثين عامًا وأشعر أن الزمان قليل عليك وأن الدقائق تجري و أنا وراء الدقائق أجري)، بينما يشكو فاروق جويدة من عدم وصول حبيبته بسبب نسيانها توقيتهم الخاص فيقول: (يا ليتني قبل الرحيل تركت عندك ساعتي فقد ذهبت حبيبتي ونسيت ميعاد القطار).

ولكم أقول أحبتي: هيا نضبط دقات الساعات الخاصة بنا على دقات قلوب الأحبة حتى لا يسقط منا تقويم العشق والهوى.

إعدام الذكريات

تتوالى الأحداث القاسية علينا جميعًا، المصبوغة بالدماء والآلام الموجعة للقلوب، والتي نحتاج فيها إلى من يربت علينا أو يحتضننا ويقبّل رؤوسنا، أو لمن يضعنا على أولى درجات النسيان والشفاء، أو من يمكن أن يكون السند والدعم والظهر القوى، أو مصل المناعة والقوة والمقاومة، ضد أي هجوم، أو حتى من يقدم وردة أو شمعة وسط ظلام وقسوة، وهنا تظهر معادن البشر صحيحة طبيعية، دون إضافات أو مواد تجميل أو عطور باريسية أو صبغات أو أزياء تنكرية ملائكية أو أصوات ساحبة، تجر من يسمعها للأعماق البعيدة، ثم تتركه دون سبب، ودون معين، ليغرق ويضيع من الألم ويتخبّط بين الأمواج والكائنات البحرية وورد النيل وبقايا البشر والنباتات والثياب البالية والأحذية الممزّقة وأجزاء السيارات المتهاوية المتهالكة الصدئة، ورائحة الماء العميق، تغلق رئتيه حتى الموت، وكأنها (النداهة) التي ضيّعت الكثيرين في حكايات الجدات والأمهات، التي حذّرونا منها.

وتؤلمنا الذكريات وأصحابها أو شركاؤنا فيها، حتى نتمنى لو لم نلتقِ بهم ذات يوم، ولو لم تجمعنا معهم صورتُسجّل تواريخ اللقاءات والاحتفالات والنجاحات وأول سلام وأول ابتسامة وأول نغزة قلب وأول صدة وأول جرح، وتوالى الأحزان، ليدور في أذهاننا سؤال محيّر، وهو هل من الممكن أن نعدم الذكريات؟ وهل لدى بعض البشر

القدرة على ادعاء أرقى المشاعر ليُصدقه الجميع ويفاجؤون بعد ذلك بأنها كانت مزيفة؟ وكيف تبدو صورة هؤلاء المدّعين لنبتعد عنهم، ولا نجعلهم يوقعون بأسمائهم في أوراق ذكرياتنا؟ وهل هذا في مقدرة البشر لنفعل أم أنه نوع من الخيال؟

وفي أوراق أطباء علم النفس، يؤكدون أن الذكريات ظاهرة بيولوجية ديناميكية تتميز بفاعلية مستمرة، ويؤدي التعرّض للمُنبهات من مشاعر سعيدة أو صدمات قوية إلى تكوينها وترتيبها في العقل الباطن، حيث تنتقل من الذاكرة القصيرة إلى الذاكرة الطويلة ويتوقف تقييم تلك المشاعر وأهميتها في الذاكرة على تقدير الشخص لها وقوة انفعالاته وأهميتها، وإذا وصلت الذكريات لتلك الدرجة داخل الإنسان وأصبحت مرتبطة بعدة حواس، يقوم هرمون السعادة (الدوبامين) بتخزينها، ونقلها بين خلايا المخ، ليشعر الإنسان بالرضا والسعادة كلما مرت به، وللأسف أن الذكريات المؤلمة الموجعة التي تسبب ألمًا شديدًا تتساوى معها عند السكن والاستقرار في العقل الباطن.

وبعيدًا عن مرض العصر المسمى بـ«فيسبوك»، وإغلاق صفحاته وحذر الأشخاص غير المرغوب في مشاركتهم حياتنا الخاصة جدًا، أو دخول غرفنا، ولا أقول منازلنا الكبيرة، لأن ما يحدث بالفعل هو أنهم يقتحموننا بمساعدة هذا المرض اللعين، ولا يتوقف الأمر على الاقتحام، بل إنهم يعبثون بأفكارنا، وقد يوجهونها كما يشاءون، ويدخلونها دهاليز مظلمة وأماكن يُحظر التجول بها، ومناطق مزودة بلافتات تقول (خطر)، أو (ممنوع الدخول) أحدّثكم أحبائي عما لم يصل إليه أو يخترعه أحد علماء الإنترنت، ولا واحدة من شركات

الاتصالات العالمية العملاقة التي تصول وتجول وسط عقولنا وذكرياتنا ومشاعرنا وتحتفظ لديها بتواريخ ميلادنا، وأول نظرة، وأول كلمة، وهمسات قلوبنا، لترسلها لنا سنويًا في تقليد يوجع القلوب، ويزيد معاناتها، ويفتح الجراح التي نتصنع إغلاقها، ونوهم أنفسنا والمحيطين بِنَا وشهودها ومشاركينا إياها أنها أغلقت للأبد –أحدثكم عن إعدام الذكريات– ففي هذه المرحلة من الحياة التي يمكن أن نقول عنها (غريبة الأطوار والأحداث)، عنيفة التحولات والنقلات فاقدة الشرعية، عديمة المبادئ، ومزيفة المشاعر، لا بد أن نقوم بإعدام ما يؤلمنا أو يضعفنا أو يعيق حركة الصعود الطبيعي لنا ويعرقل مسيرتنا، لأن هناك كثيرًا من الذكريات تأتي على هيئة وجع، كما أننا لا نملك رفاهية اختيار ما نرى منها، أو ما يسعدنا فقط، لنسمح له بالظهور في أحلامنا ومداعبتها حيث يتساوى منها المبهج والمؤلم في قوة مؤثراته والاحتفاظ به.

أدعوكم أصدقائي أن ننفض كل ما آلمنا وكل صورة تثير الندم، وأن نعيد معًا تنظيم دقات قلوبنا، ونهدئ من روعها ومن صوتها، وأن نضبط معدلات (الملح والسكر) بدمائنا، وأجسادنا لنهرب من أشهر أمراض العصر وأكثرها فتكًا بِنَا، ونعدو بعيدًا عن وجع الذكريات، ونتركها جثة تترنّح في الفضاء خلف ظهورنا، دون أي دمعة حزن أو شفقة أو ندم، فأنا أنادي بصدق بإعدام الذكريات.

فن التدمير

لكل منا سمات لا تتشابه مع الآخرين كبصمات الأصابع التي ينفرد بها الإنسان فلا يوجد اثنان لهما نفس البصمات على وجه الأرض. ومن أهم هذه السمات القلوب وما تحوي وتقدم وحجمها المعنوي وعطاؤها العاطفي وانفعالها مع الأفراح والأحزان وردود فعلها بصفة عامة وصوت دقاتها الذي يؤنس وحدة الأحبة ويفرحهم ويضمد جراحهم ويشعرهم بالدفء.. وعادة ما تكون تلك الصفات الناعمة الرقيقة لأصحاب القلب الواسع الذي يضم جميع من حوله، إلا أنه هناك أيضًا من لا يسع قلبه حتى أقارب الدرجة الأولى لأنه يضم نفسه فقط بطريقة عنكبوتية لزجة مقززة ويقيم أسوارًا حديدية لمنع الاقتراب أو التصوير ويخفيها بدهائه بورود حمراء وهي في الحقيقة لمن يفهم ويعرف ليست إلا لافتات تحذيرية حمراء اللون توحي بالخطر لمن يجرؤ على أن يلمس هذا القلب أو يهمس له أو يناغيه ويشاغله حيث يحصن نفسه بنفسه ويلتف بشر ايينه وأوردته وعضلاته وأعصابه ويتقوقع لا يتأثر بأي شيء خارجي، هو فقط العامل المؤثر في كل هؤلاء.

وعادة فإن أمثال هذا الشخص يُجيدون فنًا لا ينافسهم فيه أحد وهو (فن التدمير) فالويل لمن يقترب منهم أو يحاول دخول حياتهم، وتكون الكارثة أشد إذا وصل صاحب ذلك القلب المتقوقع للقمة أو السلطة وشعر بالزهو والنجاح ومعنى أن يكون محط الأنظار وان

يحاط بالمعجبين من الجنسين، وهم غالبًا من أصحاب المصالح الباحثين عن أقصر الطرق لتحقيق أهدافهم.

ومثل هؤلاء لديهم قدرة أخرى تشبه إلى حد كبير لاعبي السيرك والأكروبات الهوائية، فهم يجيدون الرقص على حافة الهاوية، وأعني بذلك الإحساس دائمًا بالاقتراب من السقوط وسرعة تدارك الخطر والعودة بسرعة إلى الأمان، وفي الغالب يكون هؤلاء في حالة حب وإعجاب بالذات وتمجيد لشخصهم، وهناك فرق كبير بين من تدرب على السيطرة والقيادة لمشاعره وحركاته ونظراته و إيماءاته ولمسات أصابعه وخطواته وكلماته وقلمه، وبين الآخرين الذين لم يعتادوا إلا الصدق في جميع مناحي الحياة.

ولأنه لا يوجد أسوأ من الانتقال من قمة السعادة والتفاؤل إلى آخر درجات الإحباط فإن ضحايا هؤلاء كثيرون، وفي علاقاتهم الخاصة فإن عشقهم للذات يصيبهم بالعمى عما يحيطهم ولا يدركون معنى أن يطلب منهم أحد الضحايا الرفق به، وعادة ما يكون معنى هذا الطلب أن درجات الحب أو المعزة أو الاقتراب بدأت في التناقص الفعلي و أنه يطلب الإنقاذ لقصة جميلة لا يريد موتها أو إسدال الستار عليها بكلمة النهاية، إلا أن فن التدمير يخفي كل هذا عن القلوب المتقوقعة.

ويقول علم النفس عن أمثال هؤلاء إنهم مصابون بحب تعذيب الآخرين وإن السبب وراء ذلك لا بد أن يكون عقدة مرضية عانى منها (صاحب القدرة على التدمير) كأزمة تواصل مع حبيب أو رفضه بشكل صادم مما يجعل رغبة إيذاء الآخرين تسيطر عليه حتى إنه يؤذي أحب الناس إليه، وغالبًا ما يعاني مثل هؤلاء من الضيق والقلق الدائم وقسوة القلب.

وغالبًا ما يضرب أطباء النفس المثل بنابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية كأشهر الشخصيات التاريخية التي ملكت قدرة عالية على التدمير للمحيطين به. أما أكثر الروايات العالمية التي تتحدث عن تلك الخاصية الفريدة فهي رواية (السأم) للكاتب الإيطالي ألبرتو مورافيا، التي تصف بكل دقة سعادة بطلها بتعذيبه لحبيبته تطبيقًا لهذه النظرية.

ولهؤلاء أقول: «لا تعشق نفسك حتى لا تدمرها وتفقد كثيرًا من الأعزاء، فدون شك هناك من لن يحتمل هذا العشق لذاتك». وكيف لمحب، إن جاز هذا التعبير أو إن كان يستحقه، أن يقذف بمن أحبه إلى الهاوية لمجرد حلم يراوده ليفقد معه أجمل المشاعر من الاهتمام بتفاصيل حياته ومن دقات الساعة تعلن له تحركات الحبيب ومكان وجوده وعدد دقات قلبه ودرجة حرارة جسده كما لو كانت جهاز تحديد الأماكن (الجي بي إس) من أجل حلم أو أمنية أو وهم.

حماكم الله و أبعدكم عمّن يتقنون فن التدمير.

خزانة الأسرار

إن كانت لديك القدرة على أن تصبح خزانة أسرار صديق أو حبيب فتأكد أنك صاحب سمات خاصة ونادرة ومميزة و أنك تملك قلبًا ذهبيًا ومشاعر ماسية و أنك من صفوة البشر.

وإذا أردت أن تعرف ما هي الخزانة ومدى احتمالها وقوتها و أنواعها فهناك الكثير؛ منها ماركات عالمية فاخرة تعيش قرونًا وموجودة حتى الآن ويتسابق محبو اقتناء التحف والأنتيكات على شرائها من المزادات حيث يتفاخرون بالحصول عليها، خاصة إذا كان مالكها الأصلي من الزعماء والمشاهير القدامى، وهناك أيضًا المحلية الصنع القديمة والحديثة وتختلف طرق استعمالها من طراز لآخر فمنها ما يعمل باليد والأرقام وأخرى بالبصمة الصوتية وثالثة بالحاسب الآلي ورابعة ببصمة العين وخامسة ببصمة اليد، وتتفنن الشركات والمصانع في استحداث طرق إغلاق وفتح الخزائن.

وخلاصة تلك الأنواع التي تختلف في طريقة الحماية وحفظ السرية أن الجميع على مر العصور يبحثون عن خزانة لأسرارهم بجميع أشكالها.

وكاختلاف أنواع الخزائن فإن الأسرار أيضًا مختلفة ومتنوعة ومنها الشرعي والقانوني والمشبوه والآثم والخيالي والواقعي والمادي والمعنوي والمالي والمعادن النفيسة والأحجار الكريمة والأوراق

الرسمية والعقود الورقية وشهادات الميلاد والوفاة وإعلانات الوراثة والوصايا ودفاتر الشيكات والصور التي تحمل أجمل الذكريات وأغلى المشاعر والهمسات والغمزات والابتسامات، وإذا كان صاحب الخزينة من الرومانسيين الغارقين في المشاعر الناعمة فقد تضم خزانته هدايا صغيرة رقيقة مثل وردة أو فراشة أو قلم أو زجاجة عطر فارغة أو ورقة صغيرة مسجل عليها رقم أو اسم أو تاريخ أو وصف أو دفتر ذكريات.

ومن المعتاد في زمن أصبح من الصعب فيه حفظ الأسرار أو المذكرات أن يحتفظ السياسيون والقادة بمذكراتهم في خزائن سرية بعيدة بمسافات قد تحتاج قطارات أو طائرات للوصول إليها ليبعدها عن أعين المنافسين والمتربصين والباحثين عن المتاعب والسبق الصحفي أو الذين يمارسون الضغوط على مثل هؤلاء للتلصص ومعرفة ما دار خلف الأبواب المغلقة وفي غرف الاجتماعات وأمام خرائط ترسيم الحدود و اتفاقيات السلام وقرارات وقف إطلاق النار أو الانسحاب أو التنحي عن الحكم أو حتى الحصول على المساعدات المالية والإنسانية وربما العسكرية أيضًا.

وكم سجلت قضايا اغتيالات ضد مجهول كان السبب وراءها خزائن الأسرار في جميع دول العالم بل إن بعضها سجل كقضايا انتحار أو هجرة غير شرعية أو حوادث قضاء وقدر أو سكتات دماغية وقلبية وخلافه.

وعودة لأجمل خزانة للأسرار ألا وهي الصديق والذي تغني بصفاته الشعراء حيث قال أحدهم قديمًا: (يا موطن أفكاري يا أجمل أشعاري يا مخزن أسراري)، أقول إننا مهما وصلنا لدرجات علمية أو سنوات

عمر أو مناصب فإن مشاعرنا تظل دائمًا في حاجة إلى خزانة بشرية تضمنا وتهدهدنا وتستمع إلينا وتحتفظ بكل ما يقلقنا وما يؤلمنا وأيضًا ما يسعدنا ويجعلنا نحلق في سماء الأحلام والحب والأشواق دون أن تبوح بها أو تكشفها لأحد. فالخازن هو متعهد أو مسئول الخزن الذي يتولى حفظ السر وصونه.

وقد أظهرت دراسة أمريكية صادرة عن كلية هارفارد للصحة العامة بالتعاون مع جامعة روشستر أعدها مجموعة من العلماء أن النتائج أثبتت أن مخاطر الوفاة المبكرة تتزايد بما نسبته 35% بين الأشخاص الذين لا يبوحون بما يقلقهم أو يسعدهم وأن 47% من الذين يكتمون ما لديهم من أسرار ولا يجدون من يشاركهم يتعرضون لنوبات قلبية بينما 70% منهم يتعرضون للإصابة بالسرطان.

وفي المجتمعات العربية تلعب طبيعة التربية والحياة الاجتماعية التي تعودنا عليها دورًا كبيرًا في تقييد مشاعرنا وعدم البوح بها خوفًا من عدم وجود خزانة أسرار ذات مواصفات قياسية.

رزقكم الله أحبتي وأصدقائي بأجمل وأوفى وأعمق وأصدق خزانة لأسراركم.

لما الطب يقول بالأحضان نحيا

إذا كانت لدينا هرمونات الأنوثة والذكورة وچينات تحدد لكل واحد منا خريطة كاملة لحالته الصحية وما يمكن أن يتعرض له من أمراض في مراحل حياته المختلفة، حيث استطاع أطباء التحاليل والأشعات إجراء بعض الأبحاث المتقدمة على الأفراد ليخرجوا من نتائجها بمعادلات طبية تشير إلى أنواع الأمراض التي سيتعرض لها الفرد، وليس ذلك فحسب بل إنهم يحددون أيضًا المرحلة العمرية، فإن الأمر لم يتوقف عند ذلك فقط فقد حصلنا مؤخرًا على اكتشاف طبي هام وطريف وسعيد، لأنه يدعو لإطلاق المشاعر والتعبير عنها بحرية وصدق ويؤكد مدى احتياجنا الحقيقي لها منذ أول دقيقة لنا في الحياة، فقد تحدث أحد الأطباء في برنامج طبي تليفزيوني عن اكتشافهم لمادة يفرزها المخ في لحظات الولادة لتستقر داخل الغدة النخامية وتساعد على حدوث انقباضات (عبقرية) للرحم، وصفها بأنها إعجازية ومن المستحيل أن يتدخل بشر لتتم وتسهل عملية الولادة بنجاح وتحافظ على حياة الجنين، وهذا بخلاف هرمون السعادة الذي يفرزه المخ أيضًا، وأكدت الدراسات التي خرجت من الجامعة الملكية بلندن عام 2015 والتي تضمنت إحصائيات وأرقامًا لقياس كمية هذه المادة بالتجارب العلمية، أن هذه المادة تفرز عندما يشعر الإنسان بدفء الحضن الذي يحتويه وعندما يقوم الحبيب بالطبطبة عليه، سواء كان هذا الحبيب هو الأم أو الأب أو

الزوج أو.. أو..

-أؤكد بالطبطبة- فالكلمة صحيحة، ويقول الأطباء إن حياة الجنين داخل الرحم تسعة أشهر هي هذا الفعل بالضبط، وعندما يخرج للحياة يترك لأمه مهمة إفراز الهرمون الذي منحها حق الحصول عليه بجدارة وامتياز، وقد تمت عشر دراسات في الجامعات الأجنبية حول الحضن وفوائده نشرت في الدوريات الطبية، حيث قام الأطباء بدراسة حالات المرضى الذين خضعوا لعمليات جراحية كبرى وقارنوا بين استجابة المرضى المحاطين بأقاربهم وقت الجراحة وبعدها والآخرين الذين لا يجدون أحدًا حولهم يضمهم أو يتعاطف معهم، فكانت النتيجة أن من أحيطوا بالرعاية النفسية والحب كان إحساسهم بالألم أقل وقدرتهم على الشفاء أسرع، كما اكتشفوا أيضًا أن الجلد البشري غني بما يمكن أن نقول عنه (مستقبلات) وأطلقوا عليها اسم (باتشيني)، فعندما تلمس الأم جسد طفلها وتحتضنه يتأثر جلده بتلك اللمسات بيولوجيًا عن طريق المستقبلات، والأمر كذلك مع جميع الأعمار، وجاءت هذه الأبحاث ونتائجها لتتوافق مع ما أكده العالم الشهير (سيجمون فرويد) من أن رحم الأم هو المكان الآمن للجنين، الذي يمثل الخروج منه أول صدمة يتعرض لها في الحياة، لأن بخروجه من هذا الحضن تتغير الأوضاع، ومن الطريف أن فريق قسم التوليد بمستشفى لندن كلينك قارن بين المواليد الذين يتم احتضانهم لعدة دقائق بعد اكتمال إجراءات الولادة مباشرة، والمواليد الذين يتم وضعهم في الفراش مباشرة دون أن يحظوا بمثل تلك الأحضان، فوجدوا أن المجموعة الأولى تميزت طوال فترة طفولة المهد بهدوء وانخفاض مستوى الارتجاف والقلق والبكاء العصبي،

في حين لم يصل أفراد المجموعة الثانية إلى ذلك المستوى، ولذا أوصى أفراد البحث بأن يتم السماح لإحدى قريبات المولود بالوجود بالقرب من عملية الولادة لأخذ الطفل واحتضانه.

وقد أكدت العالمة النفسية (فيرجينا)، وهي من أشهر أطباء النفس في فرنسا، أن الإنسان يحتاج لحضن أحبائه 4 مرات في اليوم كي يحيا، و12 مرة كي ينمو بمعدلات طبيعية، وإذا كان هذا هو الرأي العلمي فإن الأدباء والشعراء كتبوا عنه و أبدعوا في وصفه والغناء له ليسبقوا العلم بعقود وعقود، فما زلنا نردد دعوات أم كلثوم (هات إيديك ترتاح للمستهم إيديا) وكلمات وردة (احضنوا الأيام لتجري من إيدينا) ونانسي عجرم عندما تشكو الحبيب لنا فتقول (أطبطب وادلع) وقبلها عبد الحليم عندما غنى (حتى في أحضان الحبايب شوك يا قلبي).

جزيرة الأشواق

لن أنسى ما حييت مشهد النهاية في أحد الأفلام الأجنبية لزوجة اعتقل زوجها في جزيرة بعيدة مع سجناء سياسيين ومنعت عنهم الزيارة تمامًا، وعندما سمحوا لهم بها كان الحوار بين الزوجين كلمات قصيرة مبعثرة غير مفهومة بعد أن فقد السجين الرغبة في الحياة أو الحديث لقسوة الوحدة في السجن الانفرادي، إلا أن النظرات والعيون لعبت البطولة المطلقة في الفيلم، خاصة في مشهد الوداع الذي لم يكن أي منهما يعرف إن كان من الممكن أن يشاهد الآخر مرة ثانية أم لا، واستولت على أفئدة المشاهدين تلك النظرات، وقد تعجبت من بقاء هذه الصورة في ذاكرتي لا أنساها إلا أن تجارب الحياة علمتني أن الإنسان عندما تصل لقلبه أي رسالة صادقة تمس مشاعره فإنه من الصعب أن تختفي وسط باقي الصور.

وقد تعلمت يومها من الحوار الذي استمعت إليه أن هناك مشاعر تهاجم الإنسان ولا يستطيع أمامها أن يدافع عن نفسه، لأنه يدرك جيدًا قوتها وضعفه، ويعلم نتيجة مثل تلك المنازلات، من هذه المشاعر الانتظار وآلامه والشوق واكتساحه لكل ما يمكن أن يتجرأ ويحاول مواجهته، ومن أجمل التعبيرات التي استمعت إليها ما قالته صاحبة فكرة هذه المقالة، وهي تتحدث عن الغائب الذي طال غيابه عنها (أتألم شوقًا إليه وكلما تخيلته وقد عاد إليّ مرة أخرى أشعر بالسعادة تغمرني حتى الخجل)، وعندما تعجبت من كلماتها أضافت

(من لم يصل لأعلى درجات العشق لن يعرف معنى ألم الشوق ولا خجل السعادة!).

وعن تلك الساحرة أقول لكم إنني ما زلت أذكر ضحكتها الجميلة، التي تشعر أنها من القلب قبل الشفايف، جارتي في زمن الطفولة، التي كانت تسبقني وصديقاتي في سنوات العمر بالكثير، فكنا نتمنى أن نصل لعمرها لنصفف شعرنا كما تفعل ونرتدي حذاءها ذا الكعب العالي، ونحاول أن نتهادى في خطو اتنا، فقد كانت ذات طلة مدهشة وعينين خلابتين لا تستطيع أن تصف لونهما ولا رسمهما، وكثيرًا ما سألت ملاكي الحارس في أحلامي إن كنت سأحصل على ما أريد عندما تصبح قامتي في طولها وسنوات عمري تساوي أيامها، و إنني سأملك ما لديها من أسلحة الحسن الفتاكة، فقد كنا ننتظر خروجها للطريق لنرى ونتابع ونتغامز بخبث ودهاء الأطفال كيف أنها تحصل على أكثر نسبة متابعة من المعجبين والحاسدين والحاسدات والمتمنين والمتأملين والمتحسرين على صعوبة الأحلام والأمنيات أو حتى لفت انتباه هذا الجمال النادر، ووسط أحلامنا الصغيرة رأينا الاستعدادات في منزل فاتنة الحي للزفاف وبدأ سقف الأمنيات يعلو ويعلو للصغيرات، بعد أن رأينا صاحب الحظ يرتدي الزي العسكري وتغني له المطربة يوم الزفاف (يا أبو الشريط الأحمر)، وتكتمل الصورة بالشموع التي أشعلناها والثياب البيضاء التي ارتديناها تشبهًا بها وغطاء رأسها المزين بالورود واللؤلؤ يسير خلفها وكأنه يودع الطريق الذي طالما تهادت فوقه.

واختفى الجمال الساحر من بيننا راحلًا إلى بيت وحياة جديدة، وبعد شهور قليلة وجدنا مصر تنتفض والفرحة تغزو المنازل والقلوب

والسماء والنيل والشوارع والأزقة والوجوه تتبدل والنظرات وقد ازدادت بريقًا والرؤوس ترتفع تنظر للسماء وتتابع، والقامات تطول والآذان تستمع بإنصات غريب لم نعتده وأجهزة الراديو في المنازل والشوارع والعربات تذيع أغاني واحدة، بها حب ودفء وأشجان، رغم أن كلماتها كلها عن مصر فسمعنا (دولا مين ودولا مين دول عساكر مصريين) و(لفي البلاد يا صبية) و(عبرنا الهزيمة) و(المصريين أهمه) و(خلى السلاح صاحي) و(حلوة بلادي السمرا)، ومع هذا الزخم عادت جميلة الحي إلى بيت الأسرة وفي أحشائها أول طفل لها ينتظر معها عودة الحبيب، كانت تنتظر وأشواقها تظهر على ملامحها، والأمل يغمرها أن يعود مرة أخرى ليرى ابنته التي خرجت للحياة بعد أن تسلمت ورقة تفيد أنها أصبحت أرملة الشهيد البطل، يومها قالت لمن جاءوا للعزاء (أخشى أن ينساني فهو الآن مع الحور العين)، وحتى الآن ما زالت تنتظر كما تقول ابنتها التي لم تر وجه البطل إلا في صور ورقية تزدان بها جدران المنزل.

علمتني الحب

وكبرت يا أمي وعرفت معنى كلمتك التي كانت تنعشني وتفرحني وتطربني وتدفئ مشاعري وتعطيني آمالًا عريضة كلها سعيدة، وتشعرني أنني أنقل خطواتي بسرعة العدائين في البطولات العالمية للوصول لنهاية السباق نحو القمة.

وكبرت يا أمي وعرفت مذاق وحلاوة أن يطلب مني ساكن قلبي العمر كله أن أدعو له، وبحثت وفهمت وأدركت ووعيت أن الدعاء يغير الأقدار ويرفع الآلام ويخففها ويحفظ الأحبة ويحتضنهم ويمد لهم ذراعيه، وكبرت يا أمي وعرفت أنني تعلمت منك الحب لكل من حولي ولكل أشيائي الصغيرة وما أملك وما أرى فنجان قهوتي اليومية ودورق الماء في حجرتي وثوبي الأزرق وحقيبة أوراقي ومشابك شعري ومرآتي وحتى قصاصة الورق التي عبثت بالقلم فوقها فرسمت قلبًا ووردة وفراشة، أو الأقلام الصغيرة الملونة والممحاة وفانوس إنارة الطريق الذي كان يداعبني ليلًا عندما ينعكس ضوؤه على الجدار المواجه لفراشي فيضحكني أو يخيفني، فألقي بالغطاء فوق رأسي حتى لا أراه، والعصفور الرمادي اللون ووليفته في شرفتي وصوت غنائهما ومناجاتهما، والقطة الصغيرة التي تطاردني فوق درجات المنزل وتتمسح بقدمي متوددة ومتدللة وتنتظريوميًا عودتي، وطريقي الذي أسير فيه يوميًا إلى المدرسة ثم إلى جامعتي وإلى عملي، وبائع الجرائد والمجلات وغلاف المجلات النسائية المزين بثوب العروس

وميكي وبطوط وزيزي وعم دهب أبطال مجلات الطفولة، علمتني أمي أن أحب كل هذا وأكثر وأن أتعامل مع جميع المو اقف بالحب، لأنه هو المعجزة الإلهية التي منحها الله لنا، ولكن الكثيرين بكل أسف لا يدركون قيمتها ولا يعرفون معناها ولا أثرها السحري، وإذا كنت قد اكتشفت أن أمي رحمها الله قد علمتني الحب فقد وجدت في إحدى المكتبات كتابًا أعده اثنان من أشهر الكتاب العالميين، وهما (جاري شامباين وروس كامبل) تحت اسم (لغات المحبة الخمس عند الأطفال)، وقد بيع منه أكثر من مليون نسخة بالإنجليزية والعربية، ومن أجمل ما يتضمنه الكتاب جزء تحت اسم (لعبة لغة الحب السرية) لنعلم أطفالنا أجمل معاني الحب فيخرجون للعالم الخارجي وهم محبون للحياة ومتصالحون مع أنفسهم ومع الدنيا بكل ما تحتوي تلك الحروف من مكونات، ويقول الكتاب إنه ثبت علميًا أن جميع المو اقف والسلوكيات والتطورات في شخصية الإنسان تعتمد على علاقة الحب بينه وبين الوالدين في مرحلة الطفولة، وكيف استطاعا أن يوصلا إليه أنهما يحبانه، و أنه كي يصل الإنسان لهذه المرحلة منذ طفولته لا بد أن يكتشف المحيطين به لغة الحب لديه، التي تختلف من واحد لآخر حسب طبيعته.

فإذا وجدتم أن الطفل يسعده أن تصله هدية خاصة في أي مناسبة ويفعل نفس الشيء مع المحيطين المقربين له مثل معلمته في المدرسة مثلًا فتأكد أن لغة المحبة الأساسية عنده هي الهدايا، أما إذا كان يكرر كلمات الشكر لأمه مثلًا أو يمدح طعامها أو ملابسها فتأكد أن لغته هي كلمات المحبة والتعزيز، أما من يكرر مطالبه ويتذمر بشكل مباشر فلغته هي التشجيع وتقديم الدعم والاستماع

إليه. وأعتقد أننا جميعًا أعجبنا الشعر والغناء وكل إبداعات خرجت من عباءة الحب، فقد تكونت مشاعر عدة أجيال وما زالت حتى الآن على قصائد حب نزار قباني وأغاني عبد الحليم وأم كلثوم وروائع الشعراء العرب، ويكفي أن نقرأ ما قاله نزار في وصفه للحب (أصبح شجرًا أصبح مطرًا أصبح أسود داخل عين إسبانية تتكون حين أحبك) و(حين أحبك تتشكل لغة أخرى... مدن أخرى... وتسرع أنفاس الساعات)، فعلموا أولادكم ما هو الحب، أسعد الله أيامهم وملأها به.

سري للغاية

برغم المناقشات المستمرة منذ سنوات والتي تخللتها فتاوى دينية وندوات ومناظرات أشعلت الصحف ووسائل التواصل الاجتماعي والمنتديات إلا أنني أرفض وبإصرار التبرع بقلبي بعد وفاتي، وللإيضاح أقول أرفض التبرع بأعضاء من جسدي حتى لو كان الهدف إنسانيًا بحتًا وسيستفيد آخرون بها ويستمتعون بحياة كانت مهددة بإسدال الستار وكتابة كلمة النهاية.

ولأحبائي أقول برغم ما ردده رجال الدين الإسلامي والمسيحي بأن مثل هذا العمل قد يضيف الكثير للمجال الطبي كما يعتبر من أعمال الخير إلا أن الفكرة نفسها لا تروقني بالمرة، فهناك محاذير كثيرة ومتنوعة تعوق تنفيذها، كما أراها لا تتناسب إلا مع أعمال الفانتازيا والتي لا تجذب جميع المتفرجين أو القرّاء بل إن هناك نوعية خاصة تلك التي تتابعها وتستمتع بها... فلكل منا جسد و أنسجة وشرايين وأوردة وشعيرات دموية دقيقة وفصيلة دم ومكوناتها بنِسَب خاصة جدًا و أنا لا أصدق ما تعلنه نتائج التحاليل من تطابق الأنسجة بين بعض البشر وأراها رخصة طبية للاقتراب من النهايات الموجعة.

كما أنني سعيدة وفخورة بفصيلة دمي ومكوناته و أنسجته وأعضائه حتى لو أثبتت بعض الفحوصات أن بعضها لا يعمل بكامل كفاءته لكثير من العوامل وعلى رأسها الزمنية.

أنا لا أتصور أن يحصل أي إنسان على قرنية عيني ليرى بها تلك الأشخاص والمشاهد التي أحببتها وعشت بخيالاتها أجمل أحلامي فقد سجلتها وقمت بتثبيت ألوانها على هذا الجزء الذي يبحثون عنه، كما أرفض أن أهب جزءًا من رئتي لأي إنسان بعد أن عشت منذ طفولتي وهي تمتلئ يوميًا بهواء حبيبتي (مصر) وبأنفاس أمي وهي تحتضنني بين ذراعيها وكذلك تملأ صدري برائحة طفولة وبراءة أبنائي وأحفادي وزهور حديقة منزلي وعطري المفضل الذي يعرف أحبتي وصولي إليهم عندما يسبقني إلى مكانهم ويملأ هواء المكان.

أما قلبي فهذه قصة لا أستطيع سردها لكم في مقالة واحدة ولكن سأحاول و أقول في البداية إنه أغلى ما أملك وترمومتر حياتي ومؤشر سعادتي وحزني والصوت الذي أدرك عندما أسمعه أنني ما زلت أحيا وأن للحياة بقية وهو الوحيد الذي ينغزني نغزات الفرح والإنذار والإفاقة والتنبيه والتدليل والتعنيف فهو المطلع على كل ما يدور برأسي من أفكار وأحلام وأمنيات وهو المكان الذي يضم بين ثناياه أحبة العمر كله القريب والبعيد والحقيقة والوهم والونس والغريب والمبهج والمؤلم والراحل والمتشبث والذي يحاول الفرار والآخر الذي يملأ وجوده الحياة وصاحب المشاعر الرقيقة والقاسي والباسم والبشوش والمتنمر والدبلوماسي والجاف واللين والرومانسي والبوهيمي والمتطلع والبائس المنهزم جميعهم يسكنونه فكيف أتبرع به وأو افق أن يراهم أحد غيري ويتحدث إليهم ويتعرف عليهم وقد يقع في حبهم أو يؤذيهم برفضه لهم.

كيف أو افق أن يحصل أحد من بعدي على جزء من عظامي التي سيحتفظون بها في بنك العظام شديد البرودة والتي ستؤلمني درجات

حرارته تحت الصفر والضباب الثلجي داخله وقد تساعد تلك العظام أحدهم على الإمساك بقلم يختلف تمامًا عما اعتدت على استخدامه وقد يكتب به ما لا أحب ولا يعجبني أو يسير إلى مكان كنت أخشاه ويصعد درجات رفضتها أو يؤذي بركلة من قدمه حيوانًا كنت أذوب حبًا وحنانًا عندما أراه، أما قوقعة أذني فأرجوكم أن تتركوها لي فهي الجهاز الذي استقبلت به أحب الأصوات بداية من دقات قلب أمي والتي علمتني ما هو الإيقاع وكيف أتحدث وأخرج صوتي للعالم ليعلو ويعلو مع نمو قامتي منذ أيام الصبا وحتى الآن وبها أحببت صوت أم كلثوم وعبد الحليم وما زلت حتى الآن أشعر أنها مكتبة الحب والطرب والذكريات بالنسبة لي. فأنا لن أبيع ولن أتبرع فابحثوا عما تريدون لدى تجار الأعضاء البشرية و اتركوا لي ما أملك فهو سري للغاية.

لما قالوا دي بُنية (بالضمة فوق الباء)

ورأيتك لأول مرة خيالًا صغيرًا يتراقص على شاشة جهاز الأشعة لم أشعر إلا ويداي تحاولان اقتحامها لتمسك بأناملك الدقيقة وأنت تتراقصين وكأنك تحاولين الإفلات من أي غريب يقترب وتعيشين تحت سطح الماء وتتشبثين بأعماقي فابتسمت، وقلت (حلوة) وانتفض قلبي طربًا وسعادة، وبدأت في عد الأيام والليالي في انتظارك، وحتى لا أشعر بقلق الانتظار انشغلت جميع حواسي ومشاعري في جمع كل ما يقع تحت اسم (الجمال) لك وحدك، فاخترت خصلات شعر سندريلا ولون شجرة البندق له، وقوام ملكات الجمال ودلالهن، وكحلت عينيك باللون الأسود، وخديك بلون الورد الجوري، وعطرتك برائحة المسك والعنبر، وأضأت لياليك بضوء القمر، وطرزت ثيابك بنجوم الليل والسماء، وأعددت لك وشاحًا من الحرير الهندي، وطلبت من الملائكة أن تهبك خطوات ولفتات أميرات الأحلام الساحرات، وأخذت أبحث لك عن أجمل الأسماء، وسألتك هل تفضلين اسم أميرة أو ملكة أم أن تحملي بين حروف اسمك أجمل المعاني والمشاعر أو الزهور، فكان لك ما اخترت وهمست لي به، وبحثت عن معناه فوجدته (الهنا ده)، وفي ليلة من أجمل ليالي العمر وصلت إلينا، ودخل منزلنا كل الهنا، وأشار له الجميع مبتسمين ومرحبين.

ولأني عشت طفولتي وصباي وأنا أستمع أمثال جدتي العجوز التي تطلقها في كل مناسبة يعيشها منزلنا أو أي من منازل الأصدقاء،

فقد كنت أبحث عن معنى كلماتها في إعجاب وانبهار، وعندما دارت بنا الأيام أدركت أن تلك الأمثال الشعبية سجلت تاريخ مصر القديم، ودرست وحللت سلوك المصريين وعاداتهم وتقاليدهم على مر العصور، وأن أغلبها صحيح لا يكذب، وجئت أنت ليسقط أول مثل من أمثال جدتي الذي كان يقول (لما قالوا ده ولد اتشد ضهري و اتسند ولما قالوا دي بنية طربقوا البيت عليّا)، فقد جئت بالسعادة والفرح والزهو والفخر، فعرفت أن هذا المثل غير صحيح بالمرة، وكتبت لك أمي رحمها الله على هدية ميلادك (أنا جيت نورت البيت)، وقد جئت لتنيري البيت والقلب والحياة بكل تفاصيلك الصغيرة الجميلة، بضحكتك وأحلامك ومشاعرك التي توزعينها علينا جميعًا، واهتمامك و انتظارك عودتنا يوميًا وأسماء التدليل الذكية لكل منا، وإشارتك القلقة لتأخر أحدنا، وصورة الفرحة في عينيك لمشاركتي أجمل لحظات حياتي، وقلقك المملوء بالحنان والحب في لحظات ضعفي، دخلت حياتي وكنت أحاول أن أكون الأم الحنون فاكتشفت بعد عدة سنوات أنني أنجبت أمًا ثانية لي ولكل من في المنزل ولكل من أحببتهم في حياتي، فقد شاركتني الحب والعطاء لهم، فأنت قطعة من القلب وكل المشاعر، ووجدت أن جميع الأغاني التي أطلقوها للبنات تنطبق عليك، فأنت (حبيبة أمها) و أنت (ألطف الكائنات) و أيضًا (أمورتي الحلوة) و(إن أجمل ما فيكي يا بنت إن إنتي في عينيك نني فيه حنان الأم)، وعندما أمسكت بيدك لأول مرة في طريقك للمدرسة سمعت قلبي يغني (يا بنت يا أم المريلة كحلى يا شمس هالة وطالة من الكولا) وجرت الأيام لأغني لك (البنت الشلبية عيونها لوزية وبحبك من قلبي يا قلبي انت عينيا).

وعندما بحثت عما يقوله العلم والعلماء عن التشابه بيننا أسعدني أن تؤكد الدراسات وآخرها دراسة أمريكية أجريت بجامعة كاليفورنيا، أن هناك جزءًا في الإنسان يسمى (الجهاز النطاقي) وهو المسئول عن الوظائف الانفعالية والقدرات التعليمية ويلعب دورًا رئيسيًا في هذا الخصوص، إذ أظهرت الدراسة أن نسبة توريث الأم لهذا الجهاز إلى ابنتها هو أكبر من توريثه للابن أو من توريث الأب لها أيضًا، وأكدت الدراسة أن التشابه كبير في تكوين الجهاز النطاقي من الأم والابنة على العكس من الابن والأم، وهو ما يعطي تفسيرًا علميًا لتشابه الابنة مع أمها في السلوكيات والتصرفات وأسلوب الحياة، وأسعدني أن تكوني أنت صغيرتي وشبيهتي في كل شيء بالعلم والحياة والأمثال الشعبية، فقد صدق من قال قبل تلك التجربة العلمية بمئات السنين إن (البنت لأمها).

عشق المكان

إذا مررت يومًا بمكان ما فوجدت عينيك قد تعلقتا به، وعانقتاه وترفضان أن تغادراه أو أن ينتزعهما أحد من هذا العناق، وقد تتحرك بك السيارة بعيدًا عنه إلا أنهما تظلان متعلقتين به حتى آخر الطريق أو حتى يختفي تمامًا عن مستوى الرؤية، وإذا أحسست في نفس الوقت أن قلبك يخفق بشدة وأن ضرباته تتلاحق كما لو كانت تنادي باسم شخص ما أو اسم مبنى قضيت فيه أيامًا ممتعة للدراسة أو العمل وغادرته مع دوران ساعة الزمن وتوقف علاقتك به، وإذا وجدت قدميك تتباطأ خطواتهما وتهمسان للدقائق ألا تتحرك وأن تتشبه بالساعات وتأخذ حجمها، وتتقارب المسافة بين قدميك حتى تكاد تتعثر، لأنهما تريدان أن تبقيا وقتًا أكثر مما يجب فوق تلك الأرض التي تركت عليها منذ فترة آثار خطواتك أو أعمالًا مميزة لك، فظلت قائمة تحارب الزمن وبقيت شامخة واضحة لعيون محبى النجاح والخلود وكأنها لافتة كتب عليها (مرت من هنا أصابع و أفكار ولمسات أحد عشاق العمل والإنجازات) وتظل تنافس تلك اللافتات الباردة الرسمية التي يكتبون فوقها أسماء كبار المسئولين الذين قاموا بالافتتاح دون أي إشارة أو لمحة لاسم أصحاب الأفكار الذهبية، فاعلم أنك وقعت في عشق هذا المكان وأن ما يحدث لك هو تطبيق فعلى وعادل لقانون العشق والهوى، فهو لا يتغير حتى لو تغير المحبوب وجنسه ومكانه وزمنه، فمن استمع لأبيات الشعر التي

انطلقت على لسان إبراهيم ناجي أو رامي أو أحمد شوقي، شعراء الزمن الجميل والحب الرومانسي، تصف مشاعرهم والعلامات التي ظهرت عليهم ومعاناتهم وأحلامهم وأمانيهم، سيجدها قريبة للغاية مع التي يتغنى بها الآن كاظم الساهر لحبيبته، والمعنى واحد رغم كل هذه السنوات، والفرق الكبير بين ذلك القرن وما نعيشه الآن في كل شيء إلا العشق والهوى.

وإذا عدنا لعشق المكان فقد شكل دائمًا بعدًا مهمًا لدى الشعراء، خاصة الشعراء العرب قديمًا وحديثًا، حيث ظهر من خلال كلماتهم الهيام في فضاء العشق والذكرى والحنين الجارف للمكان، وارتبط دائمًا لديهم بالمحبوبة، التي لم تكن هي المرأة فقط، فقد أخذ الوطن ينافسها ويفسح لنفسه مجالًا، واستمر حتى الآن وسط أحلام المبدعين والفنانين حلم العودة للمكان الذي شهد الأحبة والذكريات واختلطت فيه الأحلام الرومانسية بالبطولة والاستشهاد من أجل الأرض والوطن وانتهاء الحياة كما بدأت في نفس نقطة الميلاد، فقد أدرك الشاعر أنه لا يستطيع أن يبرح المكان في حياته أو مماته فركز على وصفه ومزجه بعشقه لفتاة الأحلام بتأثير وجداني كبير كعلاقة وطيدة مع الذكرى، وإذا بحثنا عن المعنى الدقيق لكلمة (المكان) فقد جاء في قاموس (لسان العرب) بمعنى موضع الشيء، أي المحل الذي يحل فيه المكان بوصفه حيّزًا جغرافيًا قائمًا يفهم منه اتساع النظر إلى الفضاء الذي يحيطه ويؤشر موضعه قياسًا إلى شيء آخر، وهذا يعني أن المكان يمثل جميع العلامات الجغرافية التي ترتبط بتشكيل خصائصه وهوية الإنسان أو المجموعة البشرية التي تعيش عليه منذ القدم، حيث نسجت العصور ملامح لعلاقة

فريدة بين الإنسان والمكان الذي يقطنه، تجسدت عبر العديد من الدلالات مثل الاطمئنان والاستقرار والراحة والشعور بالحب والأمان والحماية التي يمنحها هذا المكان لساكنيه.

ولعل من أجمل الأدوار التي يلعبها المكان في حياتنا أن يكون الوحي والإلهام، حيث قال الشاعر الأمير خالد الفيصل في إحدى قصائده (في نفس المكان مرتني الذكرى و أنا و اقف في نفس المكان في غير الزمان في ذَا ضحكت أيام لكن بكيت في ذَا حلمت أحلام لكني صحيت)، وتكرر ذلك الدور مع الكتاب والشعراء والفنانين لتصل لنا جميعًا من خلال إبداعاتهم تلك الرسالة (أن للمكان عشقًا) فابحثوا عنه داخلكم وستجدونه.

النجاح القاتل

«النجاح».. كلمة بسيطة من أربعة حروف تحمل بينها كل سعادة العالم ونعشقها جميعًا ونستمتع بمذاقها الذي لا يختفي من فمنا بسهولة، وإذا كنا من سعداء الطالع فقد يلازمنا العمر كله ويحيطنا بهالة من الضوء والإشراق تغير ملامحنا للأجمل ويلحظها الجميع، فنكون من فئة المميزين والمشاهير والمتألقين دائمًا.

وعادة ما تبدأ قصتنا مع تلك الحروف الأربعة منذ أول خطوة لنا خارج عالمنا الدافئ المملوء بالمشاعر الفياضة الخالصة دون أي أهداف (حضن الأم) عندما ننطلق خارجه بحثًا عن الغد والمستقبل والقلم والأوراق الملونة والبيضاء الناصعة بلون الأمنيات والأحلام.

وفي بداية هذا الطريق تسعدنا نجمة صغيرة لامعة فوق الجبين ليراها الجميع ويعلمون أننا متفوقون بين أقراننا، وقد تضعها المعلمة على كف اليد كنوع من التدليل، ثم تنتقل لدفتر المدرسة، وتتكرر في جولة لها بين الأوراق والحقائب والشهور والمواد الدراسية وسنوات العمر، وسرعان ما تنتقل تلك النجمة التي تسكن أحضاننا مساء وتنطلق مع كل فجر جديد لمكان آخر ويتغير لونها والمادة المصنوعة منها، حتى إن البعض قد يضعها فوق كتفيه ويضيف إليها كل فترة واحدة أخرى أو نسرًا له نفس اللمعة ليصبح لنجاحه طعم آخر وشكل جديد، وقد يحتفظ المحظوظون منا بها داخل علبة

زرقاء معلقة في شريط يحمل اسم الجائزة التشجيعية، أو يعلقها على صدره، وتكون ذهبية أو فضية أو برونزية، أو يصل للقمة بها وهي مصنوعة من الذهب الخالص في علبة تناسب قيمتها والأعمال التي استحقها بسببها، لتصبح قلادة النيل، إلا أنها مهما تنقلت وتغير شكلها ولونها ووقعها وحجم جائزتها، فإنها تظل ذات معنى واحد وهو «ناجح»، ويبقى النجاح دائمًا في كل وقت وزمن وعمر وفي كل عمل، له تأثير السحر في انشراح الروح وتحقيق الذات.

وإذا كان النجاح هو الهدف الذي تتوارث الأجيال الرغبة في الوصول إليه، فإن هناك نوعًا منه يمكن أن يُسقط جميع الأحلام ويئدها في أجمل مراحلها، ويكتب كلمة النهاية لكثير من البدايات قبل موعدها بكثير.

ونتحدث هنا عن نوع من النجاح قال عنه علماء النفس والاجتماع –وعلى رأسهم المحلل النفسي الشهير صاحب النظريات الخالدة «فرويد»– إنه يصيب الأزواج بما يسمى «الدفاع اللا شعوري عن النفس»، حيث يعتقد بعض الرجال أن نجاح المرأة يمثل له وللحياة الزوجية مصدر خطر قد يؤدي إلى فقدانه دوره وسلطته في الأسرة، بعد أن اعتاد أن يكون هو القائد المميز في كل شيء.

وهنا يحدث الانفجار ويتحول النجاح إلى قاتل يقضي على أجمل المشاعر ويشوهها، وينهار البناء الذي تظن المرأة أنه سيظل مقاومًا لعوامل الزمن، فالزوج يدافع عن نفسه بالهروب لأخرى يتفوق عليها في كل شيء وتشعر أمامه أنها في حاجة للحماية والأمان الذي يمنحه لها تميزه، أما الأخرى التي أصابه نجاحها بالقلق، رغم كونها صاحبة سنوات الحب والعشرة والأبناء، فلا تجد مفرًا أمامها إلا استكمال

طريق النجاح دون رفيق العمر، وتظل –رغم الأدوار البراقة التي تلعبها في المجتمع والحياة، وصورها التي تبحث عنها وكالات الأنباء، وكروتها الشخصية التي يتلهف عليها الجميع، وباب مكتبها الذي ينتظرون أمامه بالساعات للحصول على موعد أو توقيع أو فرصة عمل أو تقارب أو حتى ابتسامة ترحيب ومصافحة– رغم كل هذه الضوضاء والصخب والأضواء، تظل تبحث داخلها عن السبب وراء إصابتها بلعنة النجاح القاتل.

فن إتقان الحب والحياة

في كلمات رومانسية ممتزجة بالواقعية ومغلفة بالمشاعر الرجولية المصرية، التي لا يملكها أي رجل في العالم إلا المصري، قال الشاعر حسين بكري: «إنها تجيد فن الطبخ جيدًا وتجيد أكثر اللعب في المقادير، فتجعلك تأكل نفس الطبق كل مرة بمذاق مختلف»، ولأنني أقرأ الشعر والأدب بصفة عامة بمشاعري وانفعالاتي قبل عيني، علقت على كلماته تلك، فقلت: «إنها تجيد فن الحياة والإبهار ولفت الانتباه وتحفيز المشاعر النائمة والآمال المؤجلة والإبداعات التي تعوقها الأيام لتنطلق بسرعة، وفي طريقها للسماء تقوم بتخدير رغبات الدخول في نزاعات والشجار والعنف والبعاد والفشل والاستسلام والانهيارات الاقتصادية وتفكك الكيانات العاطفية، وأي من أنواع الشراكة»، فالحقيقة أننا نفتقد فن إتقان الحب والحياة وكثير منا لا يصل للمعنى الحقيقي لهذه الكلمات ويتعامل معها بسطحية شديدة تفقدها المعنى والمضمون، فإذا تحدثنا عن فن الحياة، فلا بد أن نقول في البداية إن الفن في الحقيقة جملة من الوسائل التي يستخدمها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف، وبخاصة عاطفة الجمال.

وإذا كان التصوير والموسيقا والشعر موهبة ومهارة يحكمها الذوق والمواهب، فإننا نقول إن الفن للفن وهو المبدأ الذي ينادي به العالم للحفاظ على قيمة الفن ذاته.

وإذا انتقلنا لإتقان الحياة فسنجد أن الحياة نفسها مهارة والتزام وهبة لا بد من الحفاظ عليها، ولأن الكتاب والعلماء والمثقفين والفلاسفة عرفوا أهمية فن إتقان الحياة، فقد ظهر علم التنمية البشرية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وخروج البلدان التي شاركت في الحرب مصدومة من الدمار البشري والاقتصادي الهائل، الذي تعرضت له بصفة خاصة الدول الخاسرة.

فقد كان لزامًا على المجتمع الدولي أن يرمّم تلك النفوس التي دمرتها الحرب والنيران والقنابل وزرعت من حولها الألغام، وبدأ العالم وقتها بالتنمية الاقتصادية، وواكبتها البشرية لسرعة الإنجاز والخروج من النفق المظلم.

وفي عام 1991 أصدرت الأمم المتحدة أول تقرير تحت اسم «مؤشر التنمية البشرية في دول العالم»، لتقيّم به المجهودات التي يبذلها الجميع لإتقان فن الحياة. فإذا أردنا أن نتقن الاثنين معًا، فلا بد أن يبحث كل منا عما داخله وعما تعلمه منذ طفولته والمصادر التي أثرت على نموه العقلي وجمعت له مخزون المشاعر والخبرات التي يملكها لينمي الإيجابي منها، ويتخلص من السلبيات كلها، فقد قال أحد الحكماء عن الحياة: «نبدأ الحياة عندما نزيح جانبًا الأنا الخاصة بنا، ونفسح المجال لمحبة الآخرين»، كما قال نزار قباني «لولا المحبة في جوانحه ما أصبح الإنسان إنسانًا»، بينما أكد «سقراط» في كتاب له «أن الحياة ليست بحثًا عن الذات، ولكنها رحلة لصنع الذات، فاخلق من نفسك شيئًا يصعب تقليده».

ومن أجمل ما يمكن أن يوضح لنا كيف نتقن تنمية مشاعرنا وملكاتنا ما كتبه المحلل النفسي، إيريك فروم، في كتابه الذي يعتبر

من أكثر المؤلفات قراءة في العالم والذي ترجم للعربية «فن الحب» الذي تبعه بآخر نال نفس الشهرة والاهتمام في الأوساط الثقافية والفلسفية تحت اسم «الامتلاك أو الوجود» وسبقهما بـ«الإنسان نفسه»، و«المجتمع السوي»، و«الهروب من الحرية»، ويمكن من عناوين هذه الإبداعات الخاصة بالكاتب أن نحصل على مبادئ تصل بِنَا لإتقان فن الحب والحياة كما ذكرها مغلفة بالكثير من الإسقاطات النفسية، حيث ترجم كلمة فن الحب بأنها الإتقان والإجادة والبراعة والمهارة في التعبير عن العواطف، كما ركز على مجموعة من خلاصات أساسية حول الإنسان المعاصر ومستقبله ونصح بأن يتخلص كل منا من السلبية، لأنها هي التي تجلب الفشل وعدم القدرة على الاستمتاع بأي من مشاعرنا بينما إن كان الإنسان قويًا مقاتلًا، فستسعده أشياء في غاية البساطة قد لا تعني أي شيء للكثيرين، وغالبًا ما تكون هي الطريق لإتقان ما نبحث عنه جميعًا.

حنين «أم رسمي»

عندما زاد الحنين وبدأ يهاجم القلب بعنف، جاء القرار بالرحيل، حزمت أم رسمي حقائبها، وتجولت في خان الخليلي لتشتري العبايات المصرية والجلباب الرجالي وبعض الهدايا الفضية لصغيرها الذي أصبح جدًا منذ أربعة أعوام، عندما رُزقت ابنته بأول مولود لها، ولم تشهد هذا الحفيد أم رسمي التي قالت لي: أتوق لاحتضانه وشم رائحته، فالأطفال لهم رائحة ساحرة.

وسألتني: «هل تكون هذه الرائحة خاصة بالملائكة أم بالجنة؟». وضحكت وهي تخفي دموعًا لا تدري هل هي دموع الفرح للقاء المنتظر، أم دموع وداع مصر وابنتها وأسرتها التي عاشت معها هنا سنوات اللجوء والخوف من الدمار والنيران والقصف الذي لا يتوقف، والكهرباء التي تتدلل وتختفي لأيام، والمياه التي يبحثون عنها دون جدوى، بعد أن دمرت الصواريخ البنية التحتية، وأصبحت المدينة تبكي الجمال السابق.

عرفتها ذات وجه يحمل مفاتن لا تخطئها العين، تقترب من الثمانين، لكنها اعتادت الأناقة والحس الرقيق والمجاملة والكلمات التي تسلب الإنسان مشاعره وتدفعه نحوها في ارتباط جميل. عرفتها واعتدت أن أتناول معها قهوة الصباح في فنجان يحمل نفس سماتها وكأنه قطعة منها، ومعه قطعة الحلوى السورية، فقد ظلت متمسكة

بها تشبثًا بالوطن، ولتعطي نفسها إيحاء بأن الحياة كما هي لم تتغير وأن جلسة القهوة الحمصية والأرجيلة هي نفسها لم تتغير.

وحتى لا تنسى ذكرياتها الخاصة اصطحبتها معها، وسكنت صورة الحبيب الذي قضت معه الحياة كلها فوق جدار الغرفة القاهرية والأبناء في طفولتهم، ووضعت صورة حديقتها خلفية على هاتفها المحمول، لتنظر إليها كلما سمعت نداء إحدى الصديقات أو الأهل، وكأنها جالسة في شرفتها في «حمص»، مدينتها التي تركتها مرغمة مذعورة، متدثرة بالمعطف الذي اشتراه لها الحبيب الراحل من مدينة بيروت التي كانت نزهتهم الأسبوعية، إلا أنهم الآن لا يدخلونها إلا بتأشيرة أمنية مسبقة.

وعادت أم رسمي تمسح دموعًا لم تستطع التحكم فيها وهي تقول: «بعد أن حُرمنا من أوطاننا انقسمت الأسر إلى فريقين، الكبار يريدون العودة لأحضان الوطن لترميم ما تأذى من تاريخ وحياة ومشاعر، والشباب يريدون استئناف الحياة كما بدأوا في بلدان اللجوء».

وهذا ما حصلنا عليه من مكاسب وغنائم الحروب: حنين وشوق وحرمان ولهفة و انقسام وطلبات لمّ الشمل وطو ابير أمام السفارات وعلى أبواب مصلحة الجوازات وأحلام بالحصول على تأشيرة دخول أو ختم مو افقة أمنية.

وتساءلت: أمن غنائم الحرب أن تتبدل مفرداتنا اللغوية ومشاعرنا و اتجاهاتنا القومية وطرز ثيابنا ولحظات الفرح والحزن وطقوسها؟ أليس هذا هو النظام العالمي الجديد وخريطة الطريق الكاذبة التي تريد أن تمحو آثار أقدام أجدادنا وتهدم مدارسنا التي تعلمنا فيها

حب الوطن والقومية والوحدة العربية، لتضع مناهج دراسية دولية لأحفادنا تقول إن العالم قرية واحدة صغيرة، ولذا لا بد أن نتلصص على بعضنا البعض ونسجل مكالماتنا الخاصة لنفشي الأسرار ونقبض الثمن تحويلات بنكية توضع في بلدان لا تعترف إلا بالدولار.

وفي وداعها أعطتني ما أذكرها به، وأكدت لي أنها ستعود، فقد شربت من ماء النيل فلا بد أن تعود إليه مرة أخرى.

وتأكدت في تلك اللحظة أن من اشترى لها تذكرة الطائرة هو الحنين.

علاقات موجعة

إذا كان لكل منا قصة جميلة لا ينسى مذاقها، الذي يشبه حلوى الأطفال المنعشة التي تدغدغ حواسهم وتمنحهم طاقات إيجابية وتجعلهم يعانقون الأيام ويقاومون أي وجع يقترب من أحلامهم، وقد يصيبها ببعض الشوائب العكرة إلا أن سرعان ما تتغلب عليها طبيعتهم ومشاعرهم الناصعة البياض فتعود لنقائها مرة أخرى، إلا أنه يمكن القول إن لكل منا أيضًا علاقة موجعة وبرغم قسوة الكلمة وغرابتها إلا أنها حقيقة ولا بد أن نتعامل معها، ومن أسوأ التجارب أن تكون تلك العلاقة علاقة دم أو نسب أو صداقة أو عمل أو حب أو زواج أو انتماء لوطن يقسو على حاملي جنسيته ولا يتسع للجميع، فالحب الموجع حقيقة وليس خرافة، كما يقولون في وصفهم لطائر (العنقاء) الذي اعتبره الجميع خرافة ونوعًا من الشعوذة، وعندما أستمع لتجارب الصديقات والأصدقاء أدرك جيدًا معنى أن تتحول علاقة من الاحتواء والعشرة والمودة والرحمة والعشق والاحتياج والاعتياد والونس والإشباع والتضحية وإيثار الحبيب على الذات والعطاء بل وحث الآخر على أخذ ما يريد والرضا بكل شيء دون انتظار لمقابل والعمل بتفان والإبداع فيه من كثرة الاندماج بين تفاصيله وعشقها والشعور أنه هو الحياة قبل أي شيء وكل شيء وأنه لم يعد (أكل عيش ومورد رزق فقط) بل هو العمود والجذر الذي أخرج صاحبه للهواء والشمس، ليس أقسى من أن يتحول أي من تلك

المشاعر إلى الإيذاء أو الألم أو الحرمان أو البحث عن وطن بديل أو عمل جديد أو أربعة جدران صماء ما زالت تحمل رائحة الطلاء الخانقة واللون الباهت النظيف من كثرة الصقيع، فلا حياة بينها ولم تضم أو تدفئ أي روح سابقًا، أو فراش مهترئ وغطاء لا يحمي صاحبه من أي مؤثر خارجي أو إناء لا يكفي لإطعام الأسرة وأوراق تتمزق كلما اقترب منها مداد القلم ليكتب صاحبه ويسجل ما عانى منه وما زال يقلقه، والغريب أننا لم ندرك برغم ما عشناه من تجارب أن تكسيرنا لمجاديف الغير لا ولن يزيد أبدًا من سرعة قواربنا، فنظل نحارب ونحطم ونعدو من أجل الوصول للهدف مهما كان الألم من حولنا ومهما تسببنا في وجع للمحيطين.

واذا أردت ألا تكون أحد أسباب الوجع لمن حولك عليك أن تتذكر دائمًا أن الإنسان بكلمة واحدة قد يشعر بسعادة لا نهاية لها والعكس صحيح، لذلك لا بد أن تثمن كلماتك و أفعالك وقراراتك قبل أن تصدر منك لأي إنسان فتسيئه لأن الحزن الصامت يهمس في القلب حتى يحطمه، وقد أعلن الأطباء أن هناك موتًا مفاجئًا يعود سببه لوجع القلب! وقديمًا قال الحكماء إن التجارب التي تؤثر في النفس وتحفر داخلها أخاديد وتجعلها تأخذ مواقف دائمة وشبه معممة هي في الأغلب التجارب المؤلمة، لأنها تكون أشد تأثيرًا و أبعد غورًا و أقوى تغلغلًا في أعماق الذات و أبقى مكونًا في منطقة اللاوعي أو اللاشعور، ولا أنسى أبدًا ما سمعته من إحدى السيدات وهي تصف لي ما تعانيه في علاقتها بشريك العمر فقد قالت (حاولت أن أنكسر أمامه لينسى ما يردده عن شخصيتي وحاولت أن أكون بضعف الست أمينة بطلة نجيب محفوظ في ثلاثيته الشهيرة إلا أنني فشلت وكانت

هذه هي جريمتي التي عاقبني عليها وما زال)، فنحن لا نختار طباعنا ولا ميولنا ولا نرسم لأنفسنا خريطة طريق نسير عليها، وكثير من المحبة تضيع بكل أسف كما قال (جبران خليل جبران) بين منطوق لم يقصد ومقصود لم ينطق، وكما قال نزار قباني (أكثر ما يؤلم الإنسان حقًا هو من كنت تعتبره سندك وخذلك كما أن أكثر اللحظات ألمًا عندما تحن لهؤلاء فلا تجدهم)، فأرجوكم أحبائي وأصدقائي أن تتجنبوا تلك العلاقات الموجعة وألا تنتظروا حتى تمسحوا دموعكم بل امسحوا من حياتكم من يتسبب فيها، كما قال شكسبير.

سلال الحب والذكريات

قادتني قدماي إلى بيتنا الكبير بالصدفة، في وقت كنت أشعر فيه بالإجهاد وبعض الألم، البيت الذي شاهد طفولتي ومشاعر السنوات الأولى من حياتي التي لم تكن تعرف التلون ولا إخفاء ما في القلوب.

وعندما وطئت قدماي المكان تذكرت على الفور ملمس وجه جدتي ويديها فوق رأسي وهي تتمتم بالآيات المنجيات لتحفظني من العين والحسد، وأصابعها تتخلل شعري تصففه بحب وتدليل وعناية فقدتها بعد رحيلها، وحكايات ما قبل النوم، والياسمين ورائحته تملأ الشرفة وأكواب الشاي بالنعناع الأخضر، والوليمة السنوية يوم ميلادي والإصرار الجميل على أن تعد هي كل الأطعمة كنوع فريد من الحب، وأن تعد لي ثياب العيد وتتفنن في زخرفتها بإبرتها الخاصة وخطوطها اللامعة، وسنوات الدراسة وفرحة الانتقال من سنة للأعلى واللهفة على المدرج الجامعي والإحساس بالانتماء والحب والمشاعر الخضراء والأحلام اللانهائية، وأول حذاء أنثوى، والفستان الأبيض، وليلة الحنة، ومزاح صديقات الطفولة، والزفة على درجات البيت، ودموع أمي فرحةً بالعرس وحزنًا على البعاد.

وتعجبت من أن رائحة طعام أمي وقهوتها ما زالت بين الجدران وفي مطبخها بعد هذه السنوات ودولاب ملابسها يحتفظ بأنفاسها وثيابها، وشرفتنا التي شهدت لحظات انتظارها عودتنا من المدرسة

ثم الجامعة ثم من البيت البعيد عنها، وطلة الأحفاد لأعلى لحظة الوصول بحثًا عنها وعن أحضان وهدايا نادرة وطعام وحلوى..

وفي حجرتي وجدت سلال الذكريات كما هي مليئة بالضحكات الصافية والأمنيات العالية التي اعتلت ناطحات السحاب والصور المبهجة مع الأحباء ورفقاء الطريق، وعروستي الشقراء وثيابها المزركشة والقلب الصغير والقلم الفضي والأوراق الملونة والأوتوغراف الذي امتلأت أوراقه بكلمات الحب الساذجة في زمن كانت هي السمة الرئيسيّة للأطفال المصريين، وليتها دامت، وإلى جواره وجدت الكتب التي كوّنت مشاعري وعلمتني المعنى الحقيقي للكلمة وثمنها الذي لا يقدر بمال، وجعلتني أعرف منذ صباي أن هناك بنكًا للعلم وللكلمات والمشاعر والتجارب، و أنه إن أردنا أن نكون من مبدعي الكلمة فيجب أن نمزج كل هذه المكونات ليخرج في النهاية من بين أيدينا ومن أقلامنا ما يستحوذ على الإعجاب و انبهار الآخرين والوصول للنجومية.

فقد وجدت كتب إحسان عبد القدوس الذي علم الأجيال معنى الحب، ويوسف السباعي صانع الرومانسية، ونجيب محفوظ العالمي راسم الواقع المصري وصاحب أصدق وأجمل صورة للمصريين، وتوفيق الحكيم الذي أدركت من بين سطوره معنى أن تكون فيلسوفًا وأن تتحدث للجماد والحيوان، وكتب أنيس منصور الذي طُفت معه حول العالم ودخلت عالم الجن الوهمي أو الحقيقي الذي أدهشني وأخافني وهرب النوم مني ليالي بسببه، وكتب أستاذي فاروق خورشيد صاحب أجمل الأصوات الإذاعية والذي علمني كيف أمسك بالقلم ومعنى الفن الشعبي وعرفني بأبطال رواياته

الذين وضعوا الفن الشعبي المصري في سجل الفنون (على الزئبق وسيف بن ذي يزن والقرصان والتنين والأميرة ذات الهمة) وصاحب أجمل مقالات عن الخوارق والمعجزات وعن مصر أم الدنيا اللي بناها الحلو اني ومنسيش يدّيها طعم بضاعته المشهورة.

ومن أجمل ما وجدته في سلال الذكريات والحب ديوان إبراهيم ناجي وأطلال حبيبته ونزار قباني وقصائده التي قال فيها عن حلمه أنه لا يُحكى ولا يُفسَّر ووصفه للذكريات بأنها زمن البكاء ومواسم السهر الطويل.

عندما وصلت لنهاية السلال تذكرت كلمات محمد فؤاد وهو يغني (ساعات باشتاق ليوم عشته و انا صغير ولنومي في حضن لَبْس العيد وإحساسي إن بكره بعيد).

ونصيحتي لكم أصدقائي أن تحافظوا على ذكرياتكم فهي الزاد الأخير لنا كلما تقدم العمر وغادرتنا الأيام وأحسسنا بأننا نقترب من محطة النهاية.

بنك المشاعر

منحنا الله نعمة لا تقدر بثمن ألا وهي بنك المشاعر الذي ينبض بكل ما نحمل داخلنا للحياة والأشخاص من أحاسيس وهو القلب. وداخل هذا الجزء الدقيق في صدورنا نقوم جميعًا دون استثناء، برغم الاختلافات بيننا سواء الاجتماعية أو الثقافية أو حتى المادية والعمرية، بتجميع مشاعرنا والاحتفاظ بها داخل تلك الخزانة الحديدية المغلقة، واسمحوا لي أن أشبهها بذلك نظرًا لتحصينها الشديد، نقوم بحفظ الهمسات والكلمات والصرخات والنغزات والدندنات والهمهمات والآهات دون تفريق بينها، فهي جميعًا سواء داخل الحافظة الزمنية التي تتسع لمشاعر العمر كله، وعندما يحين القدر تختفي وتتلاشى مع الجسد.

والغريب أننا منذ طفولتنا نعتاد على ملء هذه الخزينة وحمايتها بعيدًا عن الجميع، وعليكم أن ترقبوا لقاء طفل بعزيز لديه بِعد فترة بعاد لتدركوا جيدًا معنى الإفراج عن حب أو لهفة أو تمنٍّ أو أسى أو ألم البعاد أمام المحبوب، ففي لحظة كتلك تفتح الأبواب الحديدية المصفحة وتنطلق الأذرع والدموع والضحكات والجسد بجميع أعضائه ودفئه لتعانق الحبيب.

وعن قلبي أقول لكم أحبتي إنني لا أستطيع أن أزور صالة الوصول أو السفر في أي مطار لأن مشاهد الوداع واللقاء تصيبني بنغزات قلبية

لا أستطيع تحملها، ففي تلك اللحظات تظهر الآلام التي تغلق عليها خزائننا البشرية.

وإذا أراد أحدكم أن يتابع ما له داخل خزانة المحبوب ومصيرها بعد الحياة فإن عليه أن يبحث ويقرأ عن الروح وما بعد الحياة ليعرف إن كانت الروح تغادر الجسد وهي حاملة معها مشاعرها وكنوزها دون أن تتركها للعدم والفناء.

وعودة للحياة أقول لكم أحبتي رفقًا بقلوبكم ولا تحملوها ما لا طاقة لها به و اتركوها تفرج عن ودائعها في هدوء وسلام حتى لا تصاب بالعطب وتؤلمكم أو تكدر عليكم صفو حياتكم.

وللبنوك قصة تاريخية شيقة؛ إذ إنها ظهرت لأول مرة في مدينة البندقية الإيطالية وهي كلمة مشتقة من لفظ (بانكو) الإيطالية ويعني المنضدة التي يقف عليها الصراف لتحويل العملة، وظلت تتطور من استخدامها حتى وصلت للمعنى الحالي الشامل.

وقد اعتبر الصياغ والصيارفة النواة الأولى للبنوك التجارية، وفي القرن الرابع عشر توسع معنى البنك والمعاملات واستمر حتى القرن السادس عشر هذا الاتجاه لينشأ أول بنك حكومي في مدينة البندقية ويلحقه آخر في أمستردام وتزيد البنوك لتضم في خزائنها أسرار العالم كله دولًا و أفرادًا وشركات ومؤسسات.

وفي مصر أنشئ البنك الذي يحمل اسمها عام 1856 وكان مركزه الرئيسي مدينة لندن حيث تركز نشاطه في تمويل العمليات التجارية المتبادلة بين مصر و إنجلترا، وهو غير البنك الذي أنشأه طلعت حرب عام 1920.

ومن عجائب العالم الذي نحياه أن البنوك التي تصرح لها الدولة بمزاولة مختلف الأنشطة المالية من تحويل ودائع وإنفاق ومنح القروض وتقديم المشورة الاقتصادية وحفظ صناديق الأمانات والوصاية والوكالة أصبحت منها أنواع وتخصصات؛ فقد عرفنا بنك الدم وبنك العيون والعظام وبنك الجلد البشري وجميعها للخدمات الطبية، وبنك المعلومات للخدمات العلمية والتاريخية والثقافية، وجميع تلك التخصصات تزودنا بالاحتياجات من جميع الأنواع.

وإذا كنا نحتفظ بأماناتنا وأموالنا وكل غالٍ ونفيس في البنوك المصرفية ذات الخزائن الحديدية فمن الأولى أن نضم أحبتنا بين ضلوعنا ونغلق عليهم بنك مشاعرنا..

حفظهم الله لنا من كل سوء.

همس النجوم

مفتونة أنا بحديث النجوم وهمسها للمحبين والأصدقاء، فقد قرأت ماهيتها ومساراتها وأسماءها، إلا أنني وجدت همساتها تحمل أجمل وأرق الكلمات، كما أن شكلها أراه بعيني وكأنه وجه رضيع يبتسم ويتثاءب ويضم شفتيه بحثًا عن طعام أو قبلة، ويرسم بملامحه جميع المشاعر والأحاسيس الإنسانية المفرحة والحزينة والمتفائلة والمشتاقة والملولة والمتحفزة والمستسلمة والمتمردة والثائرة والعاشقة للحياة، وقد تعلمت في طفولتي أن أقرأ حركة النجوم بفكر طفلة تبحث عن الأحلام وتحقيق الأماني، فتنظر للسماء وتتخيل أنها تشكل كلمات ووعودًا بالسعادة ووجوه أشخاص وعرائس وخيول، وأحيانًا حيوانات مفترسة أو أليفة عندما تقترب وتبتعد عن بعضها وتعدوا وتتكاسل وتتشابك أو تختفي في مناورات مع ساحرات الأحلام اللاتي يداعبن الصغار وقلوبهم، وكنت أنتظرها عندما يسقط الظلام ظنًا مني أن كلًا منها تتمسك بمكانها ولا تغادره، إلا أن حرقة الشمس تدفعها للاختباء خلف جبال اعتقدت أنها موجودة في السماء حتى تغرب الشمس فتعود لأماكنها لتلهو معي وتحدثني بما أريد.

إلا أنني فوجئت بحقائق عن أصدقائي من النجوم جعلتني أتأكد أن الطفولة عالم من الخيالات، فالحقيقة أن عالمنا الذي نعيشه يتكون من 125 مليار مجرة في الكون المرئي فقط وكل منها يحتوي على عدد من النجوم يساوي 200 مليار نجمة، وتمر ولادة النجم عادة

بمراحل علمية تتم دراستها وبحثها في أحد فروع الفيزياء الفلكية، التي تتضمن تشكل وولادة النجوم ودراسة الوسط النجمي والغيوم الجزيئية العملاقة كأسلاف لعملية ولادة النجوم نفسها، حيث تكون الكواكب نواتج مباشرة لولادة النجوم أيضًا، وقديمًا اهتم الإنسان بالإجرام السماوية كثيرًا لاعتقاده بتأثيراتها على ظواهر الجو الأرضي بمختلف أنواعها، ويعتبر علم التنجيم من أعلى العلوم منزلة لما في ذلك من عظيم الانتفاع في تحديد السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان وزيادة النهار والليل ونقصانها ومواضع النيزين وكسوفهما ومسير الكواكب في استقامتها ورجوعها أو تبدل أشكالها ومراتب أفلاكها، وكان العرب يحددون من خلال حركة النجوم مسار القوافل ليلًا وكذلك الجيوش، كما استعانوا بها لإعداد التقاويم وتحديد مواسم البذار والحصاد والصيد والفيضان والأعياد، ومن الطريف أن يكون للإنسان خريطة طالع تحددها له النجوم ولها معطيات أساسية، فلا بد من معرفة يوم ووقت ومكان ولادته وحساب الزمن النجمي، حيث يستخلص من معادلة فلكية خاصة أو من قوائم خاصة على أساس توقيت جرينتش، ويقول المنجمون إن شخصية الفرد تتحدد بواسطة الكواكب وإن انعكاسات الشخصية تتحدد وتتشكل وفقًا لأوضاع الكواكب بعضها بالنسبة لبعض، حيث يتأثر الإنسان بالأجرام السماوية القريبة منها والبعيدة تأثرًا غير قليل، ويتم تحديد البرج الذي يكون فوق رأس الإنسان عند الولادة ومن ثم تحديد مواقع الشمس والقمر والكواكب على خريطة الميلاد الفلكية، ومن أطرف ما يذكره علم النجوم أن الظواهر الفلكية لها تفسيرات لدى أهل التنجيم تختلف تمامًا عن الدراسات العلمية، فعندما يقترب كوكبان أي تكون الزاوية بينهما صفرًا أو يتقابلان أي

تكون الزاوية 180 فإن المنجمين يعتبرون ذلك فألًا سيئًا، بينما تقول الدراسات العلمية إن هذا الوضع يعني تشويشًا على أجهزة الاتصالات.

أما إذا وجدت بينهما زاوية 60 أو 120 فإن التنجيم يقول إنه وضع إيجابي ينم عن علاقات طيبة بين الناس، بينما يفسرها العلميون بأنها ظروف استقبال مثالية للاتصالات، وإذا كان العلماء قد أكدوا أن النجوم كرات مضيئة من البلازما تشد نفسها بواسطة جاذبيتها الخاصة وأن أقرب نجم لأرضنا هو الشمس فإن نزار قباني له رأي آخر، حيث يقول لحبيبته (أعبئ جيبي نجومًا وأبني على مقعد الشمس لي مقعدًا)، أما أنا أحبائي وأصدقائي فأبحث عن البرج الذي كان فوق رأسي يوم ميلادي لأعرف من أنا.

فرق توقيت

إذا كنت ممن يفضلون ضبط مواعيدهم ويومهم بكل دقة فأنت إنسان ذكي وطموح وناجح دون أدنى شك، بالإضافة لكونك على درجة عالية من الرقي والإحساس بالآخرين وتقديرهم وتشعر بقيمة ما لديك، فالوقت من أغلى الممتلكات الشخصية وهناك من ينجح في استثماره والحفاظ عليه وآخرون على النقيض يبدعون في إهداره، وقد اعتدنا أن نسمع عبارة (فرق التوقيت) دون أن نبحث معناها الدقيق وعادة ما نستخدمها عند الحديث عن البلدان المختلفة أو مو اقيت الصلاة أو عند ميلاد القمر إيذانًا بمولد شهر هجري جديد أو تحديد أوقات السفر والمغادرة والوصول من قارة لأخرى، وإذا تحدثنا عن فرق التوقيت بالمعنى الأشمل والأوسع فأنا واحدة ممن يزعجهم ويؤلمهم أن يكون هناك فرق توقيت بيني وبين أحبتي أو أبنائي أو المحيطين بي، ولا أجد أشد قسوة من الاقتراب من عزيز لأعبر له عن شكر أو امتنان أو فرحة أو مشاركة أو تشجيع أو أي مشاعر صادقة و أفاجأ بأنه لم يصله أي مما أحمل أو أشعر، لأن هناك اختلافًا كبيرًا بيننا، و أنه لا بد أن أنتظر كثيرًا لأرى رد فعله، أو بمعنى أدق ليصله ما أحمله له، وفي مثل تلك الحالة أتأكد أن هناك بيننا ما يسمى فرق توقيت وأن أي تعامل أو مشاعر ستكون مزعجة لي أنا على الأقل.

وإذا أردنا أن نصل للمعنى الدقيق لهذا العنوان أقول لكم إنه من أجمل وأصدق وأحن وأعمق أنواع التو افق والاندماج والذوبان

والحياة داخل زمن واحد مشاعر الأم وصغارها، فلا عجب أن تستيقظ الأم قبل لحظات من بكاء رضيعها جوعًا لتسبقه وتلتقطه بين أحضانها، ولأنها أقوى الروابط الإنسانية والعاطفية فإن زمن الأم مرتبط دائمًا بالأبناء، وتوقيتها معهم لا يوجد فيه أي فروق، فقلبها دائمًا ينغزها فرحًا مع أفراحهم وألمًا وحزنًا مع أوقات معاناتهم، بل إن قلوب الأمهات يمكن اعتبارها مؤشرات على أحداث ساكنيها بكل دقة، تتنبأ لهم قبل حدوث أي شيء، ولعل جميلة الشاشة ليلى مراد عندما غنت وقالت (قلبي دليلي قال لي حتحبي) كانت تترجم لنا بدقة شديدة معنى نغزة الحب المحددة التوقيت ومعنى أن تهمس لك جوارحك بحدوث شيء ما، وهو ما يعني أن هناك قلبين لم يعد بينهما فرق توقيت، وتوحد زمن نبضهما معًا ورغباتهما، ومثلها في ذلك إحساس التوأمين ببعضهما في الألم والمرض والسعادة والفرح، حيث يؤكد العلماء أن التوأمين بينهما ارتباط سلوكي وعاطفي يتعدى تشابه الملامح ليصل إلى الجوهر في الذوق والميول ليصبح الزمن لديهم واحدًا، وفي قصائد الشعر والأغاني والإبداعات الأدبية بأنواعها والفلسفية أيضًا يترجم المبدعون ما أعنيه من كلماتي بأنه الانسجام أو الاندماج في الآخر، إذ يختفي تمامًا فرق التوقيت لتشدو فيروز بكلمات الأخوين رحباني التي خلدها لدينا صدقها فتقول (ياانا ياانا أنا وياك) والتي تؤكد أن العلاقات الناجحة هي ثورة عواطف ومشاعر وأحاسيس.

وإذا تركنا الحب والمحبين و اتجهنا لعلم الرياضيات أقول لكم إن العلماء في القرن التاسع عشر اتفقوا على تقسيم الكرة الأرضية وهميًا إلى 360 خطًا من خطوط الطول، و اتخذت مدينة جرينتش مركزًا

لهذه الخطوط، وسمى الخط الذي يمر بها خط الصفر، ولحساب التوقيت العالمي في كل بقاع العالم يحسب الفرق في خطوط الطول بين المدينتين ويحول الفرق إلى ساعات بتقسيمه على 15، وتضاف إلى البلد المطلوب معرفة ساعته إن كان شرق جرينتش أو تنقص منه إن كان غربه، ومن هنا عرفت الإنسانية فرق التوقيت الزمنى.

أما أنا أحبتي فأتمنى من الله وأدعو لي ولكم ألا نعاني أبدًا من فرق التوقيت، سواء الزمني أو العاطفي، حفظكم الله ومتعكم بالقرب من أوطانكم وأحبتكم.

وردة وفراشة

لدى كل منا حكايات وصور وأصوات وهمهمات ودندنات وأحلام وبقايا هدايا وروائح ومذاق يسكنونه ولا يغادرون أماكنهم مطلقًا مهما مرت السنوات وتغيرت الملامح أو نبرة الصوت أو الأحلام والأمنيات، فمن مقعد المدرسة الابتدائية إلى المرحلة الثانوية ومن ضفيرة الشعر التي تهتز وتزدان بالشرائط البيضاء إلى مقعد تصفيف الشعر والصبغات والألوان المبهجة والشعر المستعار ومن الحذاء الرياضي إلى الكعب ذي الصوت الرنان والحقيبة النسائية الصغيرة وأحمر الشفاه وطلاء الأظافر ومن ملعب المدرسة الابتدائية إلى الملعب الأولمبي وحلم الاحتراف والمركز الأول في السباحة والتدريب لعبور المانش ومن الثياب الرياضية ذات الماركة العالمية إلى بدلة الزفاف والمكتب في برج شهير يعانق السحاب والرصيد في بنك أجنبي واللعب في البورصة، ومن القلب الصغير في سلسلة حول عنق الشابة تمسك به أثناء الحديث مع الآخرين لتؤكد للجميع أن لديها حبيبًا، وتلك هديته إلى الخاتم الماسي الذي تحرك أصابعها كثيرًا ليراه الجميع.

وحتى المشاعر من محطة لأخرى تتغير وتتبدل الاحتياجات من حضن الأم والتشبث به ومحاولة ارتداء حذائها واستخدام أشيائها الخاصة إلى التمرد على محاولاتها اقتحام الخصوصية وأسرار المراهقة والبحث عن فارس الأحلام ومن التشبه بالأب إلى الهروب

من سطوته والخروج من بين أصابعه والبحث عن ثوب جديد تمامًا ورفض العروس المختارة والتمسك بالحبيبة، ومن الدمية الصناعة المنزلية من بقايا ملابس العيد إلى العروسة كرنبة وكوكو واوا، ثم باربي بدولاب ملابس ملكات الموضة والأناقة ولا بأس من فلة بعباءة سوداء وغطاء رأس للتشبه بالإسلاميين، ثم دمية عيد الحب ومن الدراجة ذات العجلات الثلاث إلى دراجة السباق والخوذة لحماية الرأس والماكينة التي تسابق الريح إلى السيارة الشبابية بزجاج معتم ثم آخر ماركات العربات الألمانية والفرنسية والسائق الخاص واستئجار الرحلات الخاصة بالطائرات وحضور المؤتمرات الدولية للطيران وللسلاح بحثا عن طريقة للوصول للعالمية والشهرة ومن اتحاد طلاب المدرسة إلى مثيله في الجامعة إلى أمانة شباب الحزب ثم رئاسته و إتقان لعبة السياسة وخوض الانتخابات ثم حلم الوصول إلى القمة.

بين كل هذه المحطات تعيش وتنمو ذكرياتنا والتي كشف مجموعة من علماء الطب النفسي في دراسة لهم أجريت بجامعة كاليفورنيا الأمريكية بمركز رونالد ريجان الطبي أن هناك خلية عصبية بالمخ منفردة وسط كم هائل من مليارات الخلايا العصبية مسئولة عن القدرات الإدراكية وهي المتعلقة بالذاكرة البشرية وعلى الأخص بلورة الارتباطات ببعض اللحظات في حياتنا والتي نتعلق بها وتطول إقامتنا فيها ويسحرنا عبقها ويأخذنا الحنين إليها.

وتحدثت الدراسة عن (علم النوستالجيا) كمفهوم للحنين للماضي، فأثبتوا أنها حالة عاطفية نصنعها نحن في إطار معين وأوقات وأماكن معينة كما وصفوها بأنها عملية يتم فيها استرجاع مشاعر

عابرة ولحظات سعيدة من الذاكرة وطرد جميع اللحظات السلبية وتضمنت الدراسات أن 80٪ من الناس يشعرون بالنوستالجيا مرة واحدة أسبوعيًا.

ويقول عنها الخبراء النفسيون إنها آلية دفاع يستخدمها العقل لرفع المزاج وتحسين الحالة النفسية فهي مورد نفسي يهبط فيه الناس ليستعيدوا حياتهم ويشعروا بقيمتهم وهي من السبل الناجحة في صد الاكتئاب ليشعر الإنسان بأن حياته كانت دافئة ذات يوم.

والطريف أن تكون تلك الذكريات والأشياء المختفية بين طيات عقولنا هي زاد الشعراء والفنانين والحكماء حيث يقول أحدهم في وصفها (أن للذكريات تجاعيد تمامًا كالسنين، لكنها تسكن الأرواح لا الوجوه) و(الذكريات الجميلة تأتي على هيئة وجع)، وقد قال عنها جبران خليل جبران (الذكرى صورة من صور اللقاء) أما أحمد شوقي فقد خلّد الذكريات عندما قال (يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك).

أما أنا، وأصدقائي، فنحتفظ بكل صغيرة تحمل لنا ذكرى أو حنينًا حتى لو كانت وردة وفراشة.

فرز أول

قبل أن تتعجبوا أحبائي وأصدقائي من عنوان مقالتي الْيَوْمَ أقول لكم انتظروا و اقرأوا سطوري حتى نهايتها لتعرفوا أين نحن ومع من نعيش ونتعامل.

قالت لي إحدى الصديقات واصفة شخصية جميلة التقيناها معًا (إنسانة فرز أول) فابتسمت سعيدة بهذا التعبير البليغ وقررت أن أبحث وراءه وعنه في كل مكان.

فكل منا يتمنى أن يلتقى في حياته بأرقى البشر وأكثرهم عطفًا وعطاءً وأصحاب القدرات العالية في العلاقات الإنسانية بمختلف أنواعها. وقديمًا كانت جدتي تقول إن الأطفال هم أعدل حكم على نفوس البشر وإذا أردتم أن تعرفوا شخصًا ما على حقيقته فر اقبوا رد فعل أصغر طفل في العائلة حين يراه أو يحاول الاقتراب منه.

فالملائكة الصغيرة يسعدها أن تقترب من أصحاب القلوب النقية الرقيقة التي تسبح في الفضاء وتتجول في الحياة باحثة عمن يحتاج لمساتها أو مساعدتها لتلبي احتياجاته وتهدهده وتمسح دموعه إن سالت على وجنتيه وتطمئنه إن هاجمه الخوف وتدعو له بالسلامة من أي مكروه وتشجعه على النجاح وتبارك له في أفراحه وتواسيه في أحز انه، فالأطفال يندفعون دائمًا للأشخاص الذين يمكن أن نطلق عليهم وصف (فرز أول) ويحاولون التشبث بأيديهم والاحتماء بهم وقد

تغفو عيونهم تمامًا ويحلقون في الفضاء ويحلمون بالجنة وسكانها دون أن يهتز لهم جفن بين أذرعهم.

أما إذا كانت النفس ثقيلة وصاحبها غليظ القلب والمشاعر فإن الملائكة تنفر منه وتبتعد عنه في هروب جماعي مما يحيط به من طاقة سلبية تنشر الإزعاج في أي محيط يصل إليه، فمن المعروف أن تلك الطاقة لها مظاهر سلبية وتر افقها آثار نفسية واجتماعية و اقتصادية وغيرها والتي تؤثر على حياة الشخص.

ولا يتوقف المشهد عند ذلك فقط بل إن تلك الآثار تتخطى حدود الشخص وتؤثر على كافة العلاقات بينه وبين الناس وتجتاح الأشخاص المحيطين لتصبح السلبية سمة عامة من سمات المجتمع. وحول هذا المعنى كتب أرسطو (يمكن القول أن الشخصية أكثر الأدوات قدرة على الإقناع) وفي نفس الاتجاه قال د. مصطفى محمود (الحياة شخصية وجمال)، أما عبد الله المغلوث فقد أوضح نفس المعنى حين قال (تكمن الشخصية في الروح أكثر مما تكمن في الجسد).

وبعيدًا عن الروح والجسد فإن كلمة فرز وحدها هي فعل معناه عزل أو فصل أو ميز جيده عن رديئة. والفاعل منه فارز والمفعول مفروز. وفي الحياة الاقتصادية يعرف التجار والمستهلكون معنى الفرز الأول بأنه أرقى المنتجات وأعلاها قيمة وجودة، أما الفرز الثاني فمليء بعيوب التصنيع والخامات وهو ما يتبعه سعر منخفض.

ويقول العلماء والمفكرون إن الإنسان المتميز عادة ما تكون لديه طاقة إيجابية تتوج تفاؤله و انفتاحه على الحياة وهي قوة داخلية

ترشده إلى اختيار الطريق الصحيح وإلى إتيان الخير والتعامل بتفاؤل وانفتاح مع الحياة وهذه الطاقة هي السبب في التعادل والاعتدال في النفس البشرية بل إنه يمكن اعتبارها قوة مغناطيسية تجذب الأشياء الجيدة نحو أصحابها.

وعادة ما يتميز الإنسان الفرز الأول بكاريزما عالية وجاذبية شديدة وتواصل واعٍ مع المحيطين حيث يملك القدرة على الاستماع بمحبة والتكلم بصدق ويشعر الطرف الآخر بأهمية حديثه والنظر إلى عينيه مباشرة ويكون معه في اللحظة غير مشتت الذهن مظهرًا كل ذلك من خلال لغة الجسد.

وإذا تحدثنا عن ابتسامة الفرز الأول من البشر فيكفى أن نتذكر قوله صلى الله عليه وسلم (تبسمك في وجه أخيك صدقة). وأن نقرأ كلمات الكتاب المقدس (المحبة تتأنى وترفق، المحبة لا تحسد، المحبة لا تتفاخر، ولا تنتفخ ولا تقبح، ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء وتصبر على كل شيء) كورنيوس الأولى 13:4 – 7.

وأخيرًا أتمنى لي ولكم ولمن أوحت لي بعنوان المقالة صحبة وعشرة مع بشر من الفرز الأول.

المباراة الصفرية

اكتشفت مؤخرًا أنه في علاقاتنا الإنسانية ننسى دائمًا نحن البشر معنى الاندماج والذوبان في الآخر، ونعيش حياتنا في مباراة يسعى كل طرف أن يكون هو الفائز دون أن يفكر ولو لحظة واحدة أنه يلعب المباراة الصفرية، ففي علاقاتنا بأحبتنا يجب أن نتفهم جيدًا أن هناك هدفًا واحدًا لا بد أن نحرص عليه وهو أن تكون العلاقة صحيحة وصحية مغلفة بالسعادة والاستمتاع والإشباع والعطاء بلا حدود وبلا انتظار للمردود. مليئة بالمعاني الجميلة مشبعة (بضم الميم) للطرفين، مشجعة على حب الحياة والجمال والنجاح والاندماج داخل حزمة واحدة من المشاعر، التي إن حدثت ستفيض وتتحول لدواء لكل من حولنا من بشر يعالجهم من أي حرمان أو نقص لديهم، وما أجمل أن يتحول أي منا إلى مصدر للسعادة والعطاء لمن حوله ويكون إشعاع الحب والنور وسط مصاعب الحياة، أقول إننا في ثقافتنا العربية لم نتعلم كيف يمكن أن نؤسس ونقيم وندعم علاقاتنا العاطفية، ويبدو أن أغلبنا لم يقرأ لشعرائنا ولا لفلاسفتنا لنتعلم منهم، فقد قال نزار قباني لمحبوبته (دعيني أؤسس دولة عشق تكونين أنت المليكة فيها وأصبح أنا أعظم العاشقين) وإذا أردنا أن نبسط مفهوم العلاقة الإنسانية وضرورة إبعادها عن مدار المباريات، نذكر أن جبران خليل جبران قال (لا تحدثني عن الحب بل عاملني به) فأين نحن من هذه المشاعر والكلمات، وقد أثبتت

دراسة برازيلية أن المنافسة بين الأزواج تعد رابع أسباب الطلاق على مستوى العالم، لأنها تتحول إلى مصدر للكراهية بين الزوجين، ويقول الباحثون إن هناك أشكالًا كثيرة للمنافسة بين المحبين تؤدي إلى انهيار المشاعر الإيجابية تمامًا، ومنها المنافسة من أجل التحكم في اتخاذ القرارات أو المنافسة للوصول إلى منصب أعلى إن كان طرفا العلاقة في عمل واحد، ويقول أحد أطباء علم النفس إنه إذا اعتبر كل واحد من الطرفين أن الحب هو التقاء إنسان بكل أبعاده بإنسان آخر أو أنه رحلة ذات لذات أو عبور للحواجز التي تفصل بين البشر لما كانت هناك تلك المباريات بين الأحبة، وقد أظهرت الدراسات أيضًا أن هناك علاقة وثيقة بين طفولة الشخص وخياراته العاطفية عند بلوغه وسلوكه مع الطرف الآخر ونظرته الخاصة له، وعادة ما يقع اختيار الشخص على شريك في محاولة من العقل اللاوعي لإصلاح المشكلات النفسية التي عانى منها في مرحلة الطفولة، ولذلك ينصح أطباء علم النفس الأمهات والآباء بأن يعلموا أطفالهم التعبير عن عواطفهم ومشاعر الحب التي تملأهم وألا يحرموهم من لمسات التدليل حتى تصبح لديهم القدرة على العطاء وعلى الحياة العاطفية الصحيحة.

ويؤكدون أيضًا أن الدراسات الحديثة أثبتت أن عاطفة الحب لا تنخفض مع مرور الوقت أو السنوات، لأن النشاط في الدماغ يبقى على حاله بعد مرور عدد من السنوات، كما كان في لحظات الحب الأولى، وأثبتت الأشعات التي أجريت على المخ أنه مع مرور الزمن على بدء العلاقة العاطفية فإن منطقة أخرى ومختلفة من الدماغ تستجيب للمشاعر وهي تلك المنطقة التي ترتبط بشعور

التعلق على المدى الطويل، وهي ذاتها المسئولة عن إفراز مادة السيروتونين وارتفاع مستوياته، الذي يؤدي إلى الشعور بنوع من الهدوء و انعدام الهواجس، وإذا كانت تلك النتائج التي تحدثنا عنها هي حصيلة دراسات علم النفس والاجتماع فلماذا يصل أغلبنا إلى المباراة الصفرية وننسى أو نتناسى أن الحب كما قال نجيب محفوظ ليس معصية، ونتحول إلى المرحلة التي قال عنها الفيلسوف (آن سكستون): (ذلك الحب الذي يقول إلى أبد الآبدين ثم يدهسك كشاحنة)، أو كما قال الشاعر حسين بكرى (تتلاقى الأرواح بسرعات متفاوتة وكتل مختلفة ومواد متنوعة، أصعبها أن تكون قابلًا للالتصاق وتلتقي بروح من الصلب فلا أنت امتزجت بها، ولا أنت قادر على الفكاك منها، وأكثرها ألمًا أن يكون أحدكما من مادة متفجرة فتحولك إلى شظايا تشوه بها روحك)، ويؤكد نفس المعنى في كلمات أخرى محدثًا حبيبته (لا تدفعيني نحو الحرب فأنا مقاتل أهوج وأول ضربة لي بالسيف ستطيح برأسينا معًا)، و(إذا قررت أن تضع الحب في مقارنة فلا تفكر هل سيفوز أم سيخسر لكن ثق تمامًا أنه لم يكن حبًا)، وبعيدًا عن خيال الشعراء ونصائح علماء النفس والاجتماع أقول لكم أحبتي وأصدقائي إن هذه المباراة الصفرية تعبير مستخدم في عالم السياسة وتطلق على العلاقة بين دولتين متساويتين في القوة والنفوذ العالمي والقدرات الاقتصادية، وهو ما يعني منطقيًا أن أي تنافس أو جدل لن يسفر عن نتيجة سوى التعادل، فأرجوكم تحابوا واستمتعوا وتناسوا عنوان هذه المقالة تمامًا.

الانسحاب

أحدثكم اليوم أحبتي وأصدقائي عن أقسى شعور يمكن أن يعاني منه أحدنا ألا وهو الانسحاب، ولإيضاح معنى هذه الكلمة لا بد أن أحذركم أن تتركوا علاقاتكم تصل إليها، فالانسحاب من حياة الأحبة والأصدقاء لا يختلف كثيرًا عنه عندما يعاني شخص ما من الإدمان ويبدأ في تلقي العلاج، إذ تكون البداية دائمًا هي سحب المخدر من دماء المريض، وعندما تصل علاقة ما أيًا كان نوعها إلى الانهيار لا يجد صاحبها مفرًا من سحب الآخر من دمائه وشرايينه وأوردته، خاصة تلك القريبة من قلبه بطبيعتها، وهنا تكون الآلام المفزعة.

وفي مصحات العلاج من الإدمان يعتبر الأطباء انتهاء مرحلة سحب المخدر من دم المريض هي النجاح الحقيقي، الذي يبدأ بعده تأهيله للعودة إلى الحياة الطبيعية، ولكن بشروط وتحذيرات وبرامج علاج نفسي، بالإضافة للعقاقير، فما بالك بسحب الأحبة من دماء العشاق، وكيف يمكن أن يمارس أي شخص من هؤلاء برنامج تأهيله بعد إلغاء جزء من حياته اليومية أو فلنقل تجاوزًا بعد أن يستأصلوا جزءًا من جسده ويفقد الكثير من دمائه في عملية غير إنسانية لا يراعى فيها الجراح الحالة الصحية لمريضه ولا ينتظر، أو بمعنى أدق لا يعطيه الفرصة للاستعداد لما هو مقدم عليه، ويقول علماء النفس والاجتماع عن الانسحاب إنه تجربة قاسية يمر بها الإنسان في جميع مراحل عمره، ويتعرض لها غالبًا في مفاجآت قد تفقده توازنه لفترة

ما حتى يتأقلم مع الأوضاع التي تفرضها عليه الحياة، ومن الغريب أن الانسحاب كما يقول علماء النفس من الظواهر الإنسانية التي تختلف من الرجل للمرأة، فالنساء لا ينسحبن إلا عندما يفقدن الثقة في مشاعر الطرف الآخر ويشعرن بجرح من الممكن أن يتكرر مرة أخرى أو عندما يخيب ظنها وتجد العلاقة عكس توقعاتها تمامًا، أما الرجل فالأمر مختلف تمامًا لديه، فحقيقة أنه قد ينسحب لنفس الأسباب إلا أن أكثر الحالات شيوعًا أن يفعل ذلك بدون مقدمات ليشبع رغبته في الحرية والاستقلال، وعندما يحدث ذلك ويبلغ مداه فسرعان ما يرتد فورًا إلى الوراء ويعود من جديد، لذلك ينصح أطباء علم النفس المرأة أن تتفهم دورة المحبة الذكورية التي تخضع لطبيعة الرجل وحاجته الملحة دائمًا إلى الشعور بالحرية، حتى إن بعض الرجال قد يفقدون الإحساس بالذات بدرجة معينة عند الاتصال بشريكته والاندماج معها ومع رغباتها وعواطفها، ما يدفعه للانسحاب ليعيد ترسيخ حدوده الشخصية وإشباع حاجته باستقلاله، ويشدد الإخصائيون النفسيون على ضرورة أن تتفهم المرأة انسحاب الرجل، وفي قراءاتي عن الانسحاب وبحثي عن مرادفاته وجدت العديد من التعاريف عنه لفلاسفة وكتاب عرب وأجانب، فيقول عنه (البيركامي) إن الانسحاب من حياة بعض الأشخاص لا يعنى الاستسلام بل يعني غالبًا أنك صمدت طويلًا من أجل شيء لا يستحق، بينما يقول عنه الكاتب المصري (كريم الشاذلي) لن تنهزم أبدًا ما دام الانسحاب غير موجود في خياراتك، فالحياة تخبرنا أن هناك كثرًا ممن انسحبوا كانوا قريبين جدًا من مبتغاهم لكنهم قبل النهاية بخطوة بسيطة قرروا أن يعودوا أدراجهم في يأس، ويقول (أنيس منصور) إن الانسحاب عربة تقف عند كل باب تصحح كل الأخطاء وتجفف كل الدموع، كما أنه سكين

على رقاب العباد ونقطة في نهاية كل سطر، وإذا كانت الشيخوخة هي الانسحاب الهادئ من الحياة فالموت نهاية الانسحاب، أما في قاموس المعاني فيقولون انسحب الضيف أي انصرف من المجلس، و انسحب الجيش من المعركة أي تراجع عن مو اقعه وتقهقر ورجع مهزومًا، و انسحب فعل الاسم منه انسحاب.

أما في علم الرياضيات فإن الأمر مختلف تمامًا، حيث يوجد ما يسمى بالانسحاب في الهندسة، وهو درس له تطبيقاته ويعرف بأنه تحويل نقطي يسمح لنا بالحصول على صورة أي شكل هندسي من خلال إزاحته، حيث تنقل كل نقاط الشكل على المستقيمات المتوازية في نفس الاتجاه وبنفس المسافة، ومن خواص الانسحاب الهندسي أنه يحفظ كل الأشكال (كل شكل وصورته قابلان للتطابق فهو يحفظ الأطوال والتوازي واستقامة النقاط والمساحات والزو ايا أيضًا)، وهكذا يمكن القول إن الانسحاب تجربة وقانون إنساني ونظرية رياضية وملهم للشعراء والكتاب والفنانين، كما ألهمني وجعلني أبحث لكم عن كل ما يحمل من معان صريحة ومستترة..

حماكم الله من آلامه وعذابه.

صانع العشق والجمال

وتظل أسطورة بجماليون للكاتب العالمي (برنارد شو) مهما مرت السنين هي رمز العشق والغرام والجمال، وهي الأسطورة اليونانية التي تتحدث عن ملك قبرصي ونحات ماهر صنع تمثالًا لامرأة بارعة الحسن والجمال، فهام بها فابتهل لآلهة الحب (أفروديت) أن تهبه امرأة في جمال هذا التمثال ليتزوجها، فاستجابت لابتهالاته ورأت أن تقدم له هدية أفضل مما طلب، وذلك بأن تبث الروح في تمثاله وتبعث فيه الحياة، وهكذا تزوج الملك النحات من محبوبته وسماها (جالاتيا) إلا أن الحياة بينهما اختلفت عن عشقه لمثال الجمال الذي صنعه، و انتهت بأن طلب من (أفروديت) أن تخلصه منها، فأعادوها تمثالًا مرة أخرى، فما كان منه إلا أن حطمه...

ولكن عشاق الرومانسية في العالم وعلى مر الزمان وفي كل دول العالم لا ترضيهم النهايات المأساوية للعشاق، فكان أن خرجت للحياة الأدبية والفنية في مختلف الأدبيات شرقًا وغربًا عدة رو ايات ومسرحيات بنهايات مختلفة عن تلك الأسطورة، لعل أجملها وأرقاها في نظري تلك التي تقول إن بجماليون تزوج من (جالاتيا) و أنجب منها ولدًا هو (بافوس) مؤسس مدينة (بافوس) التي تحمل اسمه، وهي مدينة الحب الشهيرة بجزيرة كريت...

ويبدو أن الحب هو السفير الوحيد في جميع دول العالم وعلى مر العصور الذي لا ترفض أي دولة اعتماده لديها، ليمثل دولته الأصلية التي ولد فيها ويحمل جنسيتها، لذلك يجوب العالم في حرية كاملة، موجهًا أسهمه للقلوب.

وبعيدًا عن تفاصيل أسطورة بجماليون أقول لكم إن للعشق والجمال صناعًا يعيشون داخلنا جميعًا دون استثناء، و إننا بأيدينا وكلماتنا ومشاعرنا ولمساتنا نخرجه للحياة، إلا أن هذا الذي يسكن القلب (الحبيب) ويتحول إلى محل إقامة دائمة له يسجله في أوراق دفاتر الأحوال المدنية وجواز سفره كثيرًا ما يفعل كما حدث في أسطورة الكاتب الألماني ويحطم محل إقامته و إيو ائه، يحطم غرفة العناية الفائقة الدافئة المزودة بكل الأجهزة التي تعينه على الحياة، والتي تمنحه الهواء والماء اللازمين للحياة، يحطم كل شيء بحثًا عن إشكالية الحب والانفراد بالحبيب والسيطرة عليه كملكية خاصة، وهنا تكون النهاية التي وصل لها برنارد شو وتوفيق الحكيم وغيرهما من الأدباء والشعراء، عندما ناقشوا قضية صانع العشق والجمال كل بطريقته وأسلوبه وفلسفته الخاصة، والطريف أن هناك كثيرين أمثال بجماليون يطلق عليهم صانعو الجمال، بالرغم من أن بينهم اختلافات جوهرية في الزمن والمكان والتكوين والهدف والأسماء، فمنهم على سبيل المثال أدباء وشعراء وفنانون وأطباء وعقاقير، ويكفي أن أقول لكم إن الأطباء يطلقون على فيتامين (ب) اسم صانع الجمال، لأنه المسئول عن ترميم الخلايا والشباب الدائم وتقوية الذاكرة، ولذلك وجدت أنه لزامًا عليّ أن أحدثكم عن تاريخ العشق والجمال، وعن كيفية الحفاظ على ما نصنعه بأيدينا بعيدًا

عن قسوة الدمار، حتى لا يعاني أي منكم من ألم الفقد والحرمان والحنين لمن لا يعود، فلا بد أن نتعلم أحبائي من أدبائنا وشعرائنا ومبدعينا هذا الفن، فقد تأثر كاتبنا الكبير توفيق الحكيم بأسطورة بجماليون، وتذكروا أن من أجمل ما قيل عن تلك المشاعر الراقية ما كتبه نزار قباني محدثًا محبوبته (أنت حلم من الأحلام لا يحكى ولا يفسر، فأنت أحلى خرافة في حياتي) احتفظوا بأحلامكم وخرافاتكم وادعوا الله ألا تفقدوا أحبتكم أبدًا.

أشيائي الصغيرة (1)

فجأة وسط زحام الحياة وضغوطها وضوضائها اكتشفت أن أشيائي الصغيرة تغيرت وازدادت كثيرًا وأصبحت في حاجة إلى مكان جديد أحتفظ بها داخله، وبعد أن كنت أضمها في تلك المسافة الصغيرة بين قلبي وأضلعي دون أي إحساس بثقل أو ألم أصبحت عاجزة عن اصطحابها معي ووجدت لزامًا عليّ أن أبحث لها عن مكان آمن لا تصل إليه أي يد فضولية أو عابثة أو آثمة، خاصة بعد أن اضطررت للاستسلام لذلك الفاضح لكل ما نخبئه داخلنا (جهاز الأشعة) تنفيذًا لنصيحة طبية، أقلقني أن يشاهد الجميع تلك الأشياء التي ظللت عمري كله أجمع فيها و أنتقيها وأعود إليها كلما احتجت لاستراحة هادئة وسط عالم الموسيقا والأحلام بعيدًا عن الو اقع الذي يفتك بجميع مشاعرنا ويكاد يقضى علينا تمامًا، كنت أعود إليها كلما قست عليّ الأقدار، فقد كانت في متناول يدي ومشاعري ودقات قلبي وجرعات الهواء التي تدخل رئتي لتريح الآلام، لذلك كان من المؤلم أن أخرج أشيائي الصغيرة ومن بينها أغلى ما أحتفظ به وسطها، التي عشت أستمتع بها في كل مناحي حياتي (الرومانسية)، فقد احتفظت بها ومعها جميع صورها وملامحها والأمنيات التي اصطبغت بلونها وعاشت بين وجداني منذ طفولتي وإلى الآن، وكان الألم العنيف هو ذلك الذي أحسست به عندما سمعت مقدم أحد برامج التوك شو يتحدث عن ضياع الرومانسية من حياتنا، وعندما بدأ في تلقي

مكالمات المشاهدين، وكانت النسبة الأكبر منهم من النساء، أدركت أن الكثيرين من مريديها شيعوا جثمانها إلى مثواه الأخير، وأنها غابت بالفعل عنهم ولن تعود وأن عليهم التسليم بالواقع الذي يعيشونه، وبقدر حزني على ضياعها إلا أنني أدركت أهميتها وأحسست أن كثيرين مثلي يعتبرونها زادهم في رحلة العمر ويحاولون الإمساك بأي لحظة أو فعل أو إحساس يمثلها بصورة واضحة.

ولأنني أتخذها منهجًا لحياتي فقد رفضت الاستسلام كما فعل الكثيرون، وقررت أن أبحث عنها في كل مكان يمكن أن تلجأ إليه هاربة من قسوة الحياة ومطاردة الواقع لها، فوجدتها تعيش بين سطور أشهر الروايات العالمية والقصائد الشعرية، تتجول من دولة لأخرى بإبداعات مؤلفيها، حيث يتم ترجمة الرواية الواحدة لعشرات اللغات ليستمتع بها عشاقها، فالرومانسية لها تاريخ سُجل في صفحات وصفحات، فهي ذلك المذهب الأدبي والفني الذي يتميز بتفوق العاطفة على العقل، ولو تحدثنا عنها بالنسبة لعلم النفس فهي مجموعة من الأحاسيس والمشاعر يكنها الإنسان بداخله لشخص آخر، والتعبير بالرومانسية يكون على عدة صور منها الشعر والنثر، هذا بخلاف اللفتات الإنسانية والتعاملات الراقية بين الأشخاص، التي توصف بنفس الكلمة إعجابًا وامتنانًا لها.

أشيائي الصغيرة (2)

إنني ما زلت أحتفظ بأحلامي التي تصطبغ بلونها الحالم المبهج للقلب والمشاعر من طفولتي وحتى الآن، وقد كان أروع أحلامي أن أمتلك متجرًا أخصصه لبيع الورد على أن تكون جميع جدرانه من الزجاج الكاشف لما خلفه، وأن أزوده بمياه تنساب من أعلاه كقطرات المطر أو كدموع المحبين الذين يعانون من قسوة الحنين، وقد كان هذا المشهد هو العرف السائد في زمن الجمال والأناقة والرومانسية قبل أن تتجه متاجر بيع الورود إلى الورود الصناعية التي لا يوجد بها روح ولا تبحث عن ماء يروي عطشها، ثم انتقلت أحلامي لمتجر للكتب أبيع فيه روائع المبدعين التي تحكي تجارب الحياة بما تحمل من أفراح ونجاحات وأحزان وأماني، ولذلك فقد بحثت كثيرًا فوجدت أن الأدب الرومانسي بمدرسته الشهيرة لم يتوقف على القصص فقط، بل إنها مثلت في تاريخ الآداب العالمية حركة فنية وأدبية ظهرت مع عصر النهضة وتطورت بالأخص في نهاية القرن الثامن عشر، حيث مثلت ثورة على الكلاسيكية والتحرر من قواعدها وتقنياتها، ومن خصائصها اعتماد الخيال والعاطفة منطلقًا للرؤية الفنية وإبعاد الجانب العقلي وجعل الطبيعة مادة للكتابة، ولعلنا لم ننس حتى الآن روائع الكاتب المصري الرومانسي إحسان عبد القدوس، ولا فارس القصة المصرية يوسف السباعي..

ومن أشهر الروايات التي تركت أثرًا في تاريخ الأدب الغربي رائعة شكسبير (روميو وجولييت)، التي تعتبر من أعظم أعماله، وهي قصة الحب الأسطورية التي تنتهي بالموت بين عاشقين يحاولان الفرار بحبهما من الصراع بين عائلتين، وقد ظهرت ملامحها الرومانسية في العديد من الأعمال السينمائية المصرية مقتبسة تلك المشاعر، ولاقت نجاحًا كبيرًا في أكثر من عقد في تاريخ السينما المصرية.

وتكرر نفس الأمر مع رواية فيكتور هوجو (أحدب نوتردام)، التي تروي حب قارع أجراس الكنيسة القبيح المنظر للسيدة فائقة الجمال، حيث تحولت لفيلم يحمل نفس جنسية مؤلفها، ليقتبسه العديد من الأدباء العرب والأجانب، وتتناقل الأجيال رومانسية الحب غير المتكافئ وفاقد الأمل، إلا أنه يظل يحمل جميع مواصفات الحب الرومانسي.

والنماذج العالمية الدالة على حب وتفضيل أغلبيتنا للرومانسية كثيرة وخالدة؛ فهناك الفيلم العالمي (ذهب مع الريح)، الذي كتبت قصته الكاتبة الأمريكية (مارجريت ميتشل)، والذي حقق أعلى نسبة مبيعات وجوائز عالمية وترجمت القصة لأكثر من 300 لغة، كما لا يمكن أن نغفل الفيلم العالمي (تيتانيك)، صاحب أعلى نسبة مشاهدة، وأعلى أرقام لجوائز عالميّة.

ويعتبر الشعر من أهم إبداعات الرومانسيين على مستوى العالم، ولدينا الكثيرون من الشعراء المصريين والعرب تندرج أعمالهم تحت المدرسة الرومانسية؛ فهناك إبراهيم ناجي وقصائده التي تغني فيها بالعشق والعذاب وجمال المحبوبة، وعلى محمود طه، وصالح جودت، وكامل الشناوي، وفاروق جويدة، وملك الرومانسية نزار

قباني، و إبراهيم صبري، وأحمد رامي، وصلاح عبد الصبور، وفاروق شوشة، وسعاد الصباح، ومحمد بن راشد، فالرومانسية لم تفرق بين الجنسيات ولا بين العامة والأمراء، حتى وإن قال الكثيرون إنها شيعت لمثواها الأخير فإنني وبكل فخر أؤكد لكم أحبتي وأصدقائي أنني ما زلت أحتفظ بها بين أشيائي الصغيرة الثمينة، حتى وإن كنت قد أبعدتها قليلًا عن مكانها المفضل بين قلبي وأضلعي حفاظًا على سريتها وعلى ما تحمله، وأدعوكم للبحث عنها كلٌ وسط أحلامه وتمنياته لنتوجها من جديد ملكة على عالم الفن والإبداع والحب والجمال والحياة..

متعكم الله بها.

عشق النساء

للنساء طباع وعادات وهوايات خاصة جدًا، ومهما اختلفت ثقافاتهن ودرجة التعليم، وربما أيضًا أصولهن، تظل المرأة هي المرأة بمشاعرها و انفعالاتها الخاصة جدًا وردود فعلها على كل مشهد أو كلمة.

وعادة فإن للنساء عشقًا لأشياء قد لا تلفت نظر الرجال بالمرة ولا يهتمون بها، وأعتقد أن النساء تتفق في عشق الأحجار الكريمة وارتدائها على اختلاف أعمارهن، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إنه يمكن القول إن لكل امرأة حجرًا كريمًا محددًا يناسب شخصيتها وجمالها وتاريخ ميلادها.

ومن أشهر الأحجار الذهب والماس والزركون والحديد الصيني والزمرد والزبرجد والياقوت والكهرمان والفيروز.

ومن غرائب الطبيعة أن الأحجار الكريمة تمدنا بها مملكة النبات و أيضًا مملكة الحيوان، فاللؤلؤ والمرجان والعاج يعتبر مصدرها الوحيد مملكة الحيوان، بينما نجد الكهرمان الأصفر والأسود من النباتات، إلا أن الأحجار ذات الأصول المعدنية تكون أكثر صلابة، وهذه الصفة هي التي تكسبها صفة البقاء.

فمن المعروف علميًا أنه كلما زادت قوة الحجر ومقاومته للتفتت والعطب سما قدره وغلا ثمنه.

وفي التراث العربي وُصفت الأحجار الكريمة بأنها زهور لا تذبل ولا يزول قدرها مع الزمن، وأن جلالة الطبيعة يمكن أن تتشكل في أصغر نطاق داخلها.

وينصح العرّافون وقرّاء الطالع من مختلف الجنسيات بارتدائها لجلب الحظ ومنع الحسد والتخلص من الضيق والاكتئاب والتردد وعدم الثقة بالنفس، ومن أجمل ما قرأت عن الأحجار الكريمة إعلان كتبه أحد كبار تجار المجوهرات: (أحجار المراد لنيل المراد).

ووراء هذه المقولة مواصفات الحجر نفسه (حجر المراد)، حيث يُعتبر من أندر الأحجار و أقواها لما له من خواص تميزه عن باقي الأحجار لعل أهمها الطاقة الروحانية التي يمنحها لمن يرتديه.

وقد قال عنه أرسطو «إنه حجر عجيب يوجد بناحية الجنوب، وإن أخذ من معدنه في تلك الحالة كان طبعه حارًا يابسًا، وإن كان بناحية الشمال كان طبعه باردًا رطبًا، وهو أحمر اللون إذا كانت الشمس جنوبية وأخضر اللون إذا كانت شمالية».

وتؤكد تلك المقولة بعض علوم ما وراء الطبيعة والديانات القديمة التي تشير إلى أن للأحجار المختلفة آثارًا على طاقة الجسم، و أننا يمكن أن نستخدم حجرًا ما في تدعيم الطاقة المسئولة عن الإبداع مثلًا، أو عن البهجة والانتعاش، أو تحسين أداء عضو من أعضاء الجسم.

وقد حظي هذا الموضوع باهتمام شديد في الفكر العربي وكتب عنه الكثير في العديد من كتب التراث، ومن أشهر هذه الكتب «الجماهر في معرفة الجواهر» لأبي ريحان البيروني وهو من مشاهير العلماء

العرب، وعند كتابته استند إلى دراسات عن الأحجار الكريمة وذكر 22 حجرًا، حيث وصفها بألوانها ومكوناتها وتأثيرها على الأشخاص.

أما شهاب الدين التيفاشي فقد ألّف كتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» الذي تحدّث فيه عن 25 نوعًا من الأحجار، أما محمد النجاري المعروف باسم «ابن الأكفاني» فقد أبدع في كتابه «نخب الذخائر في أحوال الجواهر».

وقد اهتم علماء أوروبا بالدراسات العربية التي تناولتها وتحدثت عنها وقاموا بترجمتها ونشرها، حيث قام عدد من المستشرقين الإيطاليين والفرنسيين والإنجليز والنمساويين بترجمة كتاب «التيفاني» للغة اللاتينية.

وتتضمن تلك الكتب فوائد تلك الأحجار التي ترجع لما تتضمنه من عناصر طبيعية، فالزركون مثلًا ذو البريق والألوان الجميلة يبهج النفس ويهدئ الأعصاب ويزيد الطاقة الحيوية ويحفز دورة دم الإنسان، كما أنه يشبه الألماس في الشكل.

أما الزمرد فيساعد على الشفاء العاطفي وييسر الأمور ويزيد من ثقة الإنسان بنفسه، ويعتبرونه الكرة البلورية للإحساس بالمستقبل، بينما يقولون على الزبرجد إنه يسهل قضاء الحاجات لمن تتزين به من النساء.

نأتي للياقوت الذي يطلقون عليه لقب «حجر القلب» لأنه يمنح من يفضله المزيد من المودة والعاطفة، ونصل للفيروز وهو الحجر المفضل للقدماء المصريين الذين اعتبروه تعويذة الوقاية من الخطر في الحروب، كما تعتبره النساء حتى الآن حافظًا لمن ترتديه

من الحسد والسحر، أما الذهب فينقّي الجسم من الطاقة السلبية ويزيد الشعور بالحب والتوازن.

وبالنسبة للعقيق فيعتبرونه سيد الأحجار لندرة وجمال لونه والفوائد الروحانية لمستخدميه.

وقد أبدع صنّاع المجوهرات في الكتابة على الأحجار وتركيب ألوانها لصنع قطع فنية منها، إلا أن هناك بعض الأقاويل التي يرددها بعض حكماء الهند من المتخصصين في الأحجار وفوائدها الروحانية يؤكدون فيها أن بعض الأحجار تتضارب عند ارتدائها في وقت واحد وتكون لها آثار سلبية على مستخدميها.

وتُعتبر سيريلانكا جزيرة الجواهر، حيث يلقبونها بـ«لؤلؤة المحيط الهندي» لما وهبها الله من طبيعة غنية بتلك الأحجار على مختلف أنواعها، وقد كتب الرحالة «ابن بطوطة» و«ماركوبولو» عن نوعية الجواهر المكتشفة فيها مثل الياقوت عين الهر والياقوت النجمة والعقيق الأحمر وحجر التوبار وحجر القمر، حيث يوجد في تلك الجزيرة 40 نوعًا من الجواهر. وتقول الأساطير إن الملك سليمان تودد إلى ملكة سبأ بإهدائها ياقوتة رائعة من سيريلانكا.

وقد ذُكرت الأحجار الكريمة في بعض آيات القرآن الكريم الذي أعطاها من أساليب التشبيه ما زادها سناء ورفع من قدرها، قال تعالى «وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)»، سورة الواقعة. كما ذُكرت أيضًا في الأحاديث، فعن الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه أنه قال: «تختّموا بالعقيق يبارك عليكم وتكونوا في أمن من البلاء».

عيون القلب

تساءلنا جميعًا عندما سمعنا الجميلة نجاة ذات الصوت الساحر تشدو بكلمات عبد الرحمن الأبنودي وألحان محمد الموجي بر ائعتهم، التي اشتركوا ثلاثتهم في تحويلها لقصة للعشاق (عيون القلب) عما إذا كان للقلب عيون؟ وها أنا أحبائي أبحث لكم عن إجابة صحيحة موثقة ومعها أدلة وبراهين لأؤكد لكم أن للقلب عيونًا، وإذا بدأنا من أولى درجات سلم البحث أقول إن أول عين للقلب هي عين الأم التي ترى وليدها وتشعر به وهو يصول ويجول داخل رحمها ومع كل حركة له منذ بدايات تكوينه يزداد مقدار محبتها ومعزتها له ليصل لقمة تلك المشاعر يوم يخرج للدنيا ويصبح أول و اقع اشتركت خلاياها و أنسجتها ودماؤها وعظامها في تكوينه، ويظل حتى آخر لحظة لها في تلك الحياة تحت عيون قلبها تراه قبل أي إنسان وتشعر بأفراحه وأحز انه وآلامه ربما قبله هو نفسه بعيون القلب.

وبعيدًا عن الرومانسية وكلمات الحب فإن أساتذة وعلماء الطب يقولون إن معدلات ضربات القلب الطبيعي تتراوح للإنسان البالغ بين 60 و100 ضربة في الدقيقة، في حالة الراحة، وفي اليوم الواحد 100,000 نبضة، أي ما يعادل أربعين مليون نبضة خلال السنة الواحدة، ويقوم القلب بهذه العملية بشكل لا إرادي وبصورة منتظمة دون توقف طيلة حياة الإنسان حتى أثناء النوم، ومن أجمل وأطرف الإحصائيات التي كتبت عن القلب أنه خلال 70 عامًا ينبض القلب

2,5 مليار مرة، بالرغم أن خلايا القلب لا تتجدد مهما بلغت سن الإنسان وبالرغم من وظائف القلب الكثيرة.

ويقول (د. ريتشارد كراسوسكي) مدير وحدة أمراض القلب الخلقية بعيادة كليفلاند، إن القلب الذي يدق 100,000 دقة يوميًا يقوم بإرسال 7,570 لتر من الدم إلى جميع أجزاء الجسم، ويؤدي هذا العمل على الرغم من حجمه الذي يماثل قبضة اليد، ويمر الدم الذي يقوم القلب بضخه عبر 96,560 كيلومترًا من الأوعية الدموية عبر الجسم التي تغذي أجهزته وأغشيته، كما أن عضلة القلب هي أكثر عضلات الإنسان عملًا بالرغم من حجمها، ومن عجائب الجسد الإنساني أن القرنية هي الجزء الوحيد الذي لا يصل إليه الدم فهي ليست في حاجة إليه بالمرة.

ويؤكد الأطباء أن هناك فارقًا بين قلب الرجل والمرأة بشكل طفيف، فقلب الرجل يزن نحو 285 جرامًا بينما يزن قلب المرأة 225 جرامًا، ويعتبر قلب الحوت الأزرق أكبر قلب بين المخلوقات، حيث يصل وزنه إلى أكثر من 1500 كيلو، ولا يقتصر الفرق بين الرجل والمرأة على حجم القلب فقط بل إن هناك فرقًا بينهما في أعراض الإصابة بالأزمات القلبية، فهي عند الرجل آلام في الكتف والصدر، أما المرأة فتشعر بالغثيان وعسر الهضم وتحدث الوفيات بين الرجال أكثر من الإناث بسبب تلك الأزمات.

وعادة فإن قلب الإنسان لا يتكون بصورته النهائية الموجودة في جسد الإنسان بل يتطور كباقي الأعضاء لدى الجنين، الذي يحصل على الأكسجين والغذاء من أمه، ولذلك يكون عمل القلب وتطوره والدورة الدموية بشكل عام لدى الجنين معقدة أكثر من الإنسان

البالغ، ففي البداية يبدأ القلب بالتشكل على شكل أنبوب، وهو ما يمكن تشبيهه بقلب السمكة، وبعدها يبدأ بالنمو، ولكن نتيجة لضيق المساحة فإن القلب يلتوي ويصبح حجرتين، ويبدأ بأخذ شكل القلب ثم ينمو أكثر وينقسم لثلاث حجرات ثم أربع، وهي البطينان والأذنان ويستقر في صدر صاحبه بإزاحة قليلة لليسار.

ومن أجمل ما كتب عن القلب وعيونه أن الحالة العاطفية للشخص تؤثر على معدل ضربات القلب وتزيد كذلك من مستوى إفراز هرمون الإينفرين والنوراينفرين وهرمونات الغدة الدرقية، وهو ما يؤكد حقيقة ما يقوله المحب بأن ضربات قلبه تضطرب وتزيد عند رؤيته المحبوب، ويؤكد صحة المقولة التي أعجبتني عندما قالت إحدى النساء محدثة الحبيب (إن تأثيرك على مشاعري جامح فقد تعدى جميع الحواجز وخالف الأعراف وقوانين الطبيعة البيولوجية والكيميائية).

ومن المعروف أنه يمكن التعرض لصدمة قلبية مؤقتة نتيجة التعرض لصدمة عاطفية، حيث يقوم الجسم بإرسال هرمونات الإجهاد في الدم، ما يؤدي إلى الاشتباه بالإصابة بأعراض النوبة القلبية، وبالرغم من هذا فإنه إلى الآن لم يصل العلماء إلى أي مدى ارتباط الحب بالقلب، بل ويؤكدون أن المخ هو الذي يعطي إشارات الإعجاب بالمحبوب للقلب.

وبالرغم من كل هذه الحقائق التي تؤكد رقة هذا الجزء من الجسد البشري فإن المعلومات تقول إن القلب يمتلك طاقة تكفي للقيادة للقمر والعودة منه، كما أنه يولد طاقة تكفي لقيادة شاحنة لمسافة 20 ميلًا يوميًا، كما أن القلب يستطيع أن ينبض بعد فصله عن باقي

الجسم وذلك لامتلاكه موجات كهربائية تقدر على ذلك.

وبطبيعة الحال حصل القلب على مكانة خاصة لدى الشعراء والكتاب والفلاسفة، كما ذكر كثيرًا في الأمثال الشعبية، فيقول المثل الإنجليزي القديم (كتاب القلب يقرأ في العيون) أما في بولندا فيقولون (القلب المملوء حزنًا كالكأس الطافئة يصعب حملها) وفي إيطاليا (فرح القلب يجعل الوجه جميلًا) أما الأتراك (القلب طفل يتمنى ما يشتهيه) والهند (قلب في فرح مصفاة تجمع ذهبًا) وألمانيا (الدمعة في العين جرح في القلب).

أما شعراؤنا وفلاسفتنا فقد قالوا عنه الكثير، فعند ابن القيم (القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أنقاها وأصلبها وأصفاها) وعند محمود درويش (إذا قسا القلب قحطت العين) أما جبران خليل جبران فكتب أجمل ما قيل عن القلب (ما أنبل القلب الحزين الذي لا يمنعه حزنه عن أن ينشد أغنية مع القلوب الفرحة).

وبطبيعة الحال ذكرت القلوب في الكتب السماوية، وقال عنها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري (إلا أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)، وقد ذُكرت كلمة القلب في القرآن في عشرات الآيات، في سورة البقرة الآية 283 «وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ»، وفي سورة الكهف الآية 28 «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا».

وفي الكتاب المقدس يعتبر القلب من أكثر الكلمات المستخدمة، حيث ذكرت 876 مرة، ففي إنجيل متى 12، 33، 35 قال يسوع المسيح

(لأن من الثمر تعرف الشجرة فإنه من فضله القلب يتكلم الفم، الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يخرج الصالحات)، وفي إنجيل أرميا (وتطلبونني فتجدوني إذ تطلبونني بكل قلبكم).

وفي النهاية أسعد الله قلوبكم أحبتي وجعلكم من أصحاب القلوب اللينة التي أحبها الله ورسوله.

أوطان للبيع

ما زلت حتى الآن أذكر ما كان يملأني من أمان واطمئنان و أنا في حضن أمي، وأؤكد لكم أصدقائي أن حضنها هو وطني الذي احتو اني صغيرة ودغدغ مشاعري وعلمني معنى الانتماء والارتماء بين ذرات تراب الوطن...

أما أصابع يدها التي كان يتكور وسطها كفى الصغير فهي حدود ذلك الوطن الذي بدأ بالاتساع عندما سحبت يدي لأول مرة من بين أصابعها وأمسكت بدميتي الصغيرة، ثم قويت أصابعي فأمسكت بكوب الماء ثم بمقبض باب الغرفة، وبعده مقبض باب المنزل...

و انطلقت وسط دروب الحياة التي كانت صغيرة بحجم أحلامي وبدأت تكبر وتكبر معي، إلا أنه برغم اتساع حدود وطني ظللت منذ طفولتي وحتى الآن أدرك جيدًا أنه شيء عزيز لديّ ولا يمكن أن أعرضه للبيع لمن يدفع لي أو لمن يمنحني ما لم أجده بين حدوده، فقد تعلمت أن وطني هو عرضي وأرضي ودمائي وساستي وزعمائي وتاريخي الحديث والقديم ولعنة الفراعنة والدير البحري وطريق العائلة المقدسة وأضرحة أولياء الله الصالحين والأهرامات وبرج الجزيرة وحديقة الحيوان بالجيزة وتمثال نهضة مصر وتمثال رمسيس الثاني وجميلة الجميلات نفرتيتي والملكة حتشبسوت ونهر النيل الذي يحاول سماسرة المياه في العالم السطو عليه، بعد أن سرق أجزاء

منه لصوص الجمال وشركاؤنا في مصر من أجل إقامة أماكن سياحية ومطاعم عالمية فوق بقايا قصص الحب التي عاشت على ضفافه.

ويبدو أننا جيل نشأ على أنشودة ظلت تتردد حتى أصبحت هي النشيد الصباحي لنا في المدرسة الابتدائية، وعلى نغماتها نسير بخطى حماسية وتتنافس في إتقان كلماتها الصعبة على طفولتنا برغم سيطرتها على مشاعرنا، فعندما انطلقت أصوات الفنانين العرب بكلمات أحمد شفيق كامل وألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب بقوة وحماس (وطني حبيبي الوطن الأكبر يوم ورا يوم أمجاده بتكبر)، لم يدر بخاطر أي منهم أو بأي من الجماهير العربية التي رددته من خلفهم أن هذا الوطن سيقام عليه في أحد الأيام مزاد وستعلق لافتة على كل قطر من أقطاره (وطن للبيع)، ويتضمن إعلان البيع المواصفات التي سيستغلها الوسطاء لرفع السعر، ومنها مثلًا (فارغ من السكان بعد أن هجروه بفتح الهاء أو هجروا منه بضمها) أو (خال من المباني ويحتاج لنزح الحطام والجثث المتحللة) أو (يعوم تحت بحيرة من البترول والغاز ويحكمه عملاء لا مانع لديهم من التعامل مع أي مشتر) أو (شعب مسالم بلا أحلام ولا طموحات ويستعذب القمع والسيطرة).

عندما كتب الشاعر كلماته وقال (وطني يا مالي بحبك قلبي وطني يا وطن الشعب العربي) لم يكن يتصور أن يغلق حكامنا الحدود ولا أن يرسموها في مؤتمرات صحفية أمام الكاميرات وتحت الأضواء ولا أن يزوروها ويبيعوها لمن يدفع أكثر ويمنحوا أجزاء منها كهبات، ويبقى المواطن بلا وطن ويقضي حياته باحثًا في الغربة عنه، يعيش فاجعة لا يدركها إلا على مراحل، ولا يستكمل الوعي بها إلا بانغلاق التابوت

على أسئلته التي بقيت مفتوحة عمرًا بأكمله انتهى في الضياع بلا وطن، مرددًا ما قاله عدنان الصائغ في وصفه لعشقه للوطن (وكان المعلم حين يعلمني كيف أرسم فوق الكراريس شكل الوطن أغافله ثم ألصقه فوق قلبي).

هذه الكلمات الموجعة قالتها لي صديقتي التي جاءت إلى مصر بحثًا عن الأمان، بعد أن دمرت الاختلافات الطائفية والسياسية منزلها وبلدتها ومصنعها وأحلام الأحفاد وحجرتهم وألعابهم والستر الذي كانت تنتظره أمها العجوز بتراب وطنها وسط الأهل والجيران الذين قضت معهم عمرها كله، قالت لي وهي ذاهبة لتبحث عما بقى لها داخل بلدتها إن قلبها يؤلمها مقدمًا قبل الوصول إلى البلدة التي عاشت فيها عمرها كله، وإنها تخشى الشعور بالمهانة إن أوقفوها على حدود وطنها عدة ساعات، كما حظرها الذين سبقوها إليه، قالت لي إنها ستعود مرة أخرى ولكن بأي مشاعر وبأي قلب لا تدري؟ ذكرتني مشاعرها المتهالكة المجهدة بما قاله ياسر عرفات ذات يوم أثناء حديثه عن الوطن (ليس المهم الكرامة الشخصية بل المهم كرامة الوطن وقضيته).

ومن أكبر الأدلة على أن الوطن جزء عزيز على أي إنسان منذ بدء الخليقة وحتى الآن ما نجده وسط كتب التراث العربي، ومن بينها كتاب (حب الوطن) للكاتب د. سعد بن عبد السير، الذي أكد فيه أن حب الوطن ذُكر في الكتاب والسنة، وأن الله فطر الناس على حب الأوطان بضوابطه الشرعية، فلا غلو ولا تفريط ولا تحريم ولا تأثيم، والقرآن الكريم فقد علمنا أن يعيش الوطن في وجداننا ومشاعرنا وضمائرنا، قال تعالى في سورة البقرة الآية 126 «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا

بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»، وفي سورة الحج الآية 40 «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ»، ويربي القرآن أتباعه على الحرص على الاستقرار في الدياروتحريم الإخراج من الوطن، في سورة البقرة الآية 84 «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ»، وإذا كان القرآن قد علمنا أن حرية الوطن واستقلاله حياة وعزة والخروج منه موت، فقد أكد الأدباء وعلماء النفس والاجتماع والفلاسفة على نفس المعنى، و أبدع الشعراء في التعبير عن خوفهم ورعبهم من بيع الأوطان، فقال محمود درويش (ستنتهي الحرب ويتصافح القادة وتبقى تلك العجوز تنتظر ولدها الشهيد وتلك الفتاة تنتظر زوجها الحبيب وأولئك الأطفال ينتظرون والدهم البطل لا أعلم من باع الوطن ولكني رأيت من دفع الثمن).

وجه القمر

لديّ قناعة لا أستطيع تغييرها مهما حدث، وهي أن العلم هو نقيض الرومانسية والأحلام، وأن لديه قدرة كبيرة على تحطيم جميع نظريات الجمال وتحويلها إلى مسخ لا يُرجأ منه أي لمحة من ماضيه، كما أن لغة أصحاب العلم تختلف تمامًا كمفردات ومعان وتلميحات وإسقاطات بل ونكات أيضًا عن لغة الشعراء والكتاب والفنانين، وكنت وما زلت أتعجب من أعضاء جماعة الحر افيش، وهو الاسم الذي أطلقه أديبنا نجيب محفوظ على شلة الأصدقاء الذين اعتادوا اللقاء الأسبوعي معه في جلسة أدبية ودودة على نيل القاهرة شتاء وبحر الإسكندرية صيفًا، أقول أتعجب أنه من بينهم أطباء وأساتذة جامعات إلا أنه يبدو أن محفوظ استطاع بموهبته وتلقائيته أن يجمعهم ويوحد المصطلحات بينهم، ولا عجب في ذلك فصاحب نوبل جمع لنا الو اقعية والرومانسية في العمل الواحد ولم نشعر بأي دهشة بل عشنا مع كل شخصياته واستمتعنا بها وأرضت جميع الأذواق.

ولأن القمر كان وما زال صديق الأحبة والعشاق والشعراء، وبرغم ما قيل عنه من رجال الفضاء والعلماء الذين وطئت سطحه أرجلهم مما عذب العشاق وأشعرهم بالقلق على ونيس ليالي السهر وصديقهم، فأرجو من يقرأ كلماتي من هؤلاء العشاق أن ينساها بعد الانتهاء منها ويحافظ على وجه القمر في عينيه وقلبه كما رآه في ليالي

السهر وألا ينسى أبدًا ملامح حبيبه التي شاهدها تقترب منه وتلاحقه من فوق سطح القمر، الذي شعر أنه يعدو خلفه ويكاد يسبقه في تلك الليلة القمرية صافية السماء، فمن أجمل ما كتبه الفلاسفة في وصفهم للقمر وعلاقته الوثيقة بالبشر (أن المحب يبدو كسائق سيارة يمشي بها في السهل الواسع ويرى القمر أمامه مطلًا عليه من فوق الجبل فيسرع ليدرك القمر والقمر مكانه لا يتحرك) وهذا هو جمال الحب الذي يضع المستحيل أمام عيون العشاق ليحلموا به.

وفي بداية الحديث عن القمر أقول لكم إن هناك أمّمًا كثيرة تتخذ من القمر تقويمًا لحساب شهورها، ومنهم الهنود واليهود والصين وبلاد فارس القديمة، إلا أن العرب هم أشهر أمّم العالم اعتمادًا على القمر في تقويمهم منذ بدء تاريخهم وحتى الآن، والشهر القمري هو المدة التي يتم فيها القمر دورة كاملة حول الأرض، وتقاس عادة من مولده إلى مولده التالي، ويتعين هذا المولد بوقوع القمر بين الأرض والشمس في خط مستقيم عند بعض الناس ويتعين عند آخرين برؤية الهلال رؤية بصرية عقب مولده بعد غروب الشمس، ومن أجل ذلك فإن ابتداء الشهر القمري عند المسلمين يختلف وينحصر هذا الخلاف في تحديد معنى رؤية الهلال، لكن لا يوجد خلاف في التحديد الفلكي كمبدأ الشهر.

ولعشاق القمر يقول علماء الفلك إن هذه الاختلافات حول رؤية القمر جعلتهم يعرفون أربعة أشكال للقمر، فهناك الشهر القمري (الحقيقي) والشهر القمري (الوسطى) والشهر القمري (الاصطلاحي) والشهر القمري (الشرعي).

ويقول أهل الفلك إن الشكل الأول ليس له فترة محددة ثابتة بل تتراوح فترته بين 29 يومًا و19 ساعة في بعض الشهور، و29 يومًا و5 ساعات في شهور أخرى، أما النوع الثاني فمدته الزمنية ثابتة لكل الشهور، ومقدارها 29 يومًا و12 ساعة، وعادة تكون شهور النوع الثالث هي الفردية و30 يومًا، بينما تكون الزوجية 29 يومًا، إلا أنه يضاف يوم إلى شهر ذي الحجة في السنة الكبيسة فيصير 30 يومًا، ومن ضمن المعلومات الفلكية عن القمر أن الشهر القمري يحدث بنظام دقيق متكرر كل شهر بعد (الاقتران) ثم (الإهلال) وفق سُنة (بضم السين) كونية ثابتة لا تدخل للبشر في حدوثها مطلقًا، إنما يمكنهم مراقبة أشكال القمر المختلفة ومعرفتها وحسابها والتفريق بينها، كما أن تقسيم السنة القمرية لاثني عشر شهرًا هو تقسيم طبيعي ناتج عن اكتمال 12 دورة للقمر.

وعندما يقول العربي رأيت الشهر فمعناها أنه رأى الهلال، وقال الإمام الرازي (إن الشهر عبارة عن حركة القمر من نقطة معينة من فلكه الخاص إلى أن يعود إليها مرة أخرى)، هذا وقد ذكرت لفظة الشهر بالإفراد في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة، جاء نصفها تمامًا بالصيغة المعرفة والنصف الآخر بالصيغة غير المعرفة شهر أو شهرًا.

ونقلة سريعة للعلم والعلماء لنقول إن القمر عانى كثيرًا منهم وإنهم أبكوا العشاق حزنًا على الوهم الذي عشقوه، وذلك في ستينات القرن الماضي، ففي 20 يوليو عام 1969 وصلت بعثة أبولو11 التابعة للولايات المتحدة الأمريكية لسطح القمر، لتكون أول مهمة بشرية تهبط على سطح القمر، وكان (نيل أرمسترونج) أول إنسان يخطو بقدميه على أرض الحب والمحبين، وليتابعه 450 مليون

شخص ويستمعوا إليه من خلال راديو صوت أمريكا بشكل مباشر عبر هيئة الإذاعة البريطانية «BBC» والكثير من الإذاعات الأخرى حول العالم، وقد سجل التاريخ كلماته عندما قال (إنها خطوة صغيرة لإنسان لكنها قفزة جبارة للجنس البشري) واصفًا بذلك خطواته على سطح القمر، وقد لحقه بعد لحظات (إدوين ألدرين) زميل رحلته ليكون ثاني إنسان تطأ قدماه سطح القمر، ونصبا معًا العلم الأمريكي، ووضعوا لوحًا كتب عليه (للمرة الأولى وصل بنو البشر من الكرة الأرضيّة إلى القمر في هذا المكان في يوليو 1969 للميلاد وقد جئنا من أجل السلام باسم كل الجنس البشري)، وبعدها بلحظات تكلم معهما الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت ريتشارد نيكسون عبر اتصال فضائي، وقال لهما (كل أبناء البشرية فخورون بنجاحكما أشكركما جزيل الشكر)، ومن بعد هذا الهبوط تكررت المحاولات ونجح بعضها وفشل المئات، واخترع العلماء القمر الصناعي الذي لم يشارك قمرنا إلا في الاسم فقط لأنه صاحب مهام مختلفة تمامًا، فقد اخترعوه ليكون جاسوسًا من حديد وأسلاك، وليعمل في مجال الفضاء والإعلام والاقتصاد والبحث العلمي وتحديد الأماكن، وليدور حولنا في الفضاء إلا أنه سيظل مهما حقق قمرًا صناعيًا.

وقد بدأت أحزان العشاق عندما أكد رواد الفضاء أنهم شاهدوا القمر كوكبًا مظلمًا لا حياة فيه ولا جمال، وظلت هذه السمعة السيئة تلاحق القمر والمحبين لفترة، إلا أن الرومانسيين و أتباعهم سرعان ما نسوا وعاد المحب يدلل حبيبته بكلمة قمر، وإذا أراد أن يزيد من الدلال فهي قمره وحده، وبطبيعة الحال استمر الشعراء في الكتابة للقمر والمطربين في الغناء له، وسيظل هو أكثر رموز الغزل

شهرة، ويكفي أن نزار قباني قال محدثًا حبيبته (كتبت أحبك فوق جدار القمر) وما زالت أجمل الليالي هي الليلة القمرية وما زالت فيروز بصوتها الساحر هي جارة القمر.

أنهار الفرح

أجمل إحساس يمكن أن يغمر الإنسان في أي مرحلة من مراحل عمره منذ طفولته وحتى النهاية، مرورًا بجميع محطات حياته، هو الفرح. ولجمال الكلمة وتناغم حروفها وراحة الشفاه واللسان أثناء النطق بها بخلاف الكثير من الكلمات التي ننطق بها فنشعر بالإجهاد والتكلف فقد انتشرت كاسم مرغوب وجميل بين المواليد الإناث.

وإذا كان معناها بكل بساطة هو السرور والبهجة فقد أصبحت هي المعنى الوحيد لليلة الزفاف، وإذا قال أحدهم (دعيتكم لفرح ابنتي) كان المعنى الدعوة لأجمل أيام العمر عند العروس والأسرة كلها.

ويقال إن الفرح (الصفة) تعني أن الإنسان مبتهج و انشرح صدره فهو فرح، ومصدر هذه الصفة فرح بفتح الفاء وكسر الراء والجمع أفراح. وللحق أقول إن أفراح المصريين تجمعت مؤخرًا في شهر من أجمل شهور السنة مناخًا وأحداثًا وتنبؤات العرّافين.

فبعد أن احتفل المصريون بيوم 6 أكتوبر وذكرى ذلك الانتصار الذي هزّ وغيّر جميع النظريات العسكرية في العالم منذ 44 عامًا جاء الفرح بعد ساعات على يد صانعه المبدع محمد صلاح و أيًا كان الحدث رياضيًا أو عسكريًا فنتيجته واحدة، والإحساس رائع لكن أروع ما فيه أن يجتمع عليه أو أن يوحد بين شعب بأكمله بل على الأرجح بين منطقة كاملة أجهدها الصراع والإرهاب ودعوات

الانفصال والدماء وفرقت بين أبنائه السياسة والأهواء والمطامع الشديدة في خيرات بلادنا العربية.

ومن ضمن عادات المصريين المنتشرة بين جميع الطبقات الإحساس بالخوف مع أي فرحة كبيرة، وهذا الخوف منبعه القلق من انتهاء الفرحة أو تحولها لألم وحزن فاعتادوا ترديد كلمة (اللهم اجعله خير)، ولأن الفرح من أجمل المشاعر فقد ذكر في القرآن الكريم 22 مرة؛ ومن ضمن تلك الآيات ما يجعل انقباض الناس عند الفرح مبررًا مثل سورة يونس الآية 22: (حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ)، وتكرر نفس المعنى في سورة الأنعام آية 44: (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)، وفي سورة القصص آية 76: (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)، ويقصد في تلك الآية قارون الذي بلغ به الزهو والكبر والعجب بما بيده من المال والثروة فحذره قومه من فرح الزهو بالمال وفرح الانخداع بالحياة الدنيا مما ينسى الإنسان ربه وعهده والدار الآخرة، وسورة آلِ عمران 188: (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، فقد ذكر المنافقين الذين كانوا يقولون للنبي، صلى الله عليه وسلم، إذا خرجت لنخرج معك وإذا فعل رجعوا وتركوه وفرحوا بما فعلوا فاستحقوا الوعيد بالعذاب، وقوله تعالى: (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)، ومعنى ذلك أن الفرح أنواع منه الطيب الذي يسع القلوب، والفرح المذموم وهو الذي يكون بغير حق مثل فرح الكفار بإلحاق الضرر بالمؤمنين.

ولم يتوقف الأمر عند الدين الإسلامي فقط فقد ذكر الفرح في آيات من الكتاب المقدس؛ ففي رسالة بولس إلى أهل فيلبى 40: 4 (افرحوا في الرب و أقول أيضًا افرحوا)، وفي رسالة يعقوب 1: 2 (احسبوها كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة).

وفي سفر المزامير 126: 5 (الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج)، وفي سفر المزامير36: 4 (فرح نفس عبدك لأنني إليك يا رب أرفع نفسي)، وفي رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 12: 12 (فرحين في الرجاء، صابرين في الضيق، مواكبين على الصلاة).

ومن الدين إلى العلماء لنقرأ أن الأبحاث العلمية أثبتت أن ٪100 من الأمراض العضوية التي يصاب بها الإنسان ترجع لأسباب نفسية ولقلة إحساسه بالبهجة والفرح وتحديدًا تكون بسبب الطاقة الحيوية الخارجة من الجسد مما يؤدي للخلل.

ومن هنا جاءت فكرة العلاج بالطاقة الحيوية عن طريق مساعدة المريض على إخراج الطاقات السلبية من داخله وشحنه بطاقات إيجابية تضاعف سرعة العلاج خمسة أضعاف، وذلك من خلال تتبع مسارات وحجم ونوع الطاقة بداخله.

ولأن الفنانين هم ترمومتر الفرح والسعادة والحب في العالم كله فقد كتبوا كثيرًا عن الفرح، وكذلك الفلاسفة، فنجد فريدريك نيتشه يقول: (نسمع في لحظات الفرح الغامر صرخات الرعب والبكاء الموجع اشتياقًا إلى شيء ما فقدناه بلا رجعة)، متحدثًا عن الفرح، أما إبراهيم الفقي فيقول: (الألم هو بداية الراحة، والتعاسة هي بداية الفرح، والفشل هو بداية النجاح، عِش كل لحظة كأنها آخر

لحظة)، أما وليم شكسبير فله رأي، إذ يقول: (الأمل بالفرح يوازي الفرح ذاته).

ولأن الشعب المصري من الشعوب العاطفية التي يقلقها البحث عن الفرح فقد تغنى به كبار مطربيها وله، ولم ينس مبدعو السينما أن يطلقوا هذه الكلمة على فيلمين من أجمل ما شاهد المصريون؛ الأول (منتهى الفرح)، ظهر عام 1963 وكان فيلمًا غنائيًا لقصة وسيناريو جليل البنداري، والثاني عام 2009 (الفرح)، الذي أبدع فيه خالد الصاوي وجومانة مراد ليؤكدا للجميع أن الفرح هو ما نبحث عنه جميعًا..

ملأ الله قلوبكم أحبتي بالفرح حتى يفيض أنهارًا.

خريف الحب والأوطان

وبدأت ليالي الخريف وبدأت معها ليالي الإبداع والتألق والفن والجمال والحب أيضًا، ولمن لا يعرف فإن أغلب الكتاب والشعراء يتوقفون تمامًا عن الكتابة في فصل الصيف، وكان الأديب الكبير نجيب محفوظ يقضي شهور الصيف في الإسكندرية ويعود مع بداية الخريف لأوراقه وروايات و أبطالها، ويسابق الزمن حتى يكتب كل ما بداخله قبل هروب الشتاء واختفائها خلف نيران الصيف، كما أن جميع الأنشطة الثقافية والصالونات الأدبية تستأنف نشاطها ويبدأ موسمها السنوي مع بداية الخريف، كما يعتبر هذا الفصل موسم التزاوج عند الطيور المهاجرة التي تترك موطنها الأصلي هربًا من قسوة الطبيعة وتطير آلاف الأميال بحثًا عن الدفء والحب وتتكاثر بعيدًا لتعود مرة أخرى بصغارها بعد انتهاء قسوة المناخ.

وما أشبه حياتنا بفصول السنة، التي دفعت الفلاسفة إلى التأمل وتشبيه تعاقبها بالانتقال من البراعم إلى الزهر إلى الثمار ومن البرد إلى الحر، كل ذلك جعل الإنسان يطرح على نفسه الأسئلة الوجودية ومع مرور الوقت ظهر استخدام الشعراء والكتاب لهذه المراحل في إبداعاتهم، التي لم تتوقف عند الإنسان ومشاعره ومراحله العمرية بل ووصلت للأوطان أيضًا، وبدأنا نقرأ عن خريف الأوطان الذي يعيشه العديد من الشعوب العربية بعد أن اجتاحهم الربيع العربي الذي دمر وحرق وقتل كل مظاهر الحياة.

وقبل أن نتحدث عن خريف الأوطان قد يكون من الأنسب الحديث عما يقوله علماء الطبيعة عن الخريف، حيث يؤكدون أنه من عجائب الطبيعة التي لا يضاهيها أي من المخلوقات في روعتها وجمالها وسحرها بل وتعقيدها، ويمكن أن توصف بأنها تحفة من تحف الهندسة الطبيعية، حيث يفسر لنا دورة حياة النباتات وأوراق الشجر التي تسقط مع قدومه بسبب ضعف المنطقة التي تربطها بساق النبتة أو البرعم، فالنهار الخريفي القصير يتسبب في بطء عملية البناء الضوئي (التي تعتبر المفتاح الرئيسي لقدرة النبتة على إنتاج الطعام) وتقل كمية الضوء الواصلة لأوراق الشجر فتسقط لفقدانها الغذاء الكافي، إلا أن النبات سرعان ما يغلق هذا الجرح الناتج عن سقوط الأوراق، كما لو كان من أشهر جراحي التجميل من البشر، ليحول دون فقدان المزيد من الغذاء لأن ذلك يكون أمرًا خطيرًا للغاية في فصل الشتاء البارد على النبات كله، وينتظر أن يلحقه الربيع بعد ذلك بشمسه الدافئة ونهاره الأطول وحياة جديدة يهبها له.

وقد احتل الخريف دون مبالغة جزءًا من جميع دواوين الشعر العربية، فالمتابع لها لن يجد أيًا منها وقد خلا من قصيدة عنه أو أخرى تحمل اسمه، ويتساوى في ذلك الشعر النسائي مع الشعراء الرجال، وقد اعتبر أشهر شعراء العرب الرومانسيين نزار قباني الخريف (فصل البكاء) حتى إنه أطلق هذا الاسم على إحدى قصائده في ديوانه (أحبك والبقية تأتي)، حيث يقول (وما بين فصل الخريف وفصل الشتاء هنالك فصل أسميه فصل البكاء تكون به النفس أقرب من أي وقت مضى للسماء)، والجميل أن نزار قباني كان يعتبر

شهر سبتمبر هو إعلان بداية الخريف وكان يحتفى به، حيث يقول عنه إنه الشهر الذي يولد فيه الحب والشعر والتناقضات، وتزداد فيه الرغبة والخوف، لذلك لم يكن يمر الخريف عند نزار دون قصيدة جديدة، ومن أشهر قصائده (سبتمبر) تلك التي يخاطب فيها محبوبته، فيقول (الشعر يأتي دائمًا مع المطر ووجهك الجميل يأتي دائمًا مع المطر والحب لا يبدأ إلا عندما تبدأ موسيقا المطر) ويتابع (ينتابني في أول الخريف إحساس غريب بالأمان والخطر أخاف أن يجرفني موج القضاء والقدر.

هل شهر أيلول يكتبني أم أن من يكتبني هو المطر) ولم ينس نزار أن يؤكد في قصيدة أخرى تحت اسم (أنا والفصول) عشقه للخريف فيقول (لم يكن الربيع يومًا صديقي الخريف وحده هو الذي يشبهني)، وتعتبر الشاعرة العر اقية نازك الملائكة من عشاق الخريف، حيث كتبت قصيدة بعنوان (الغرباء) اختصرت فيها رمزية الخريف وبداية الشتاء، حيث اعتبرت لون الخريف اللون الحقيقي للذبول والبرودة، وكذلك الكاتبة اللبنانية غادة السمان والشاعرة السودانية روحية الحاج كما كتبت الشاعرة فدوى طوفان قصيدة أسمتها (خريف ومساء).

ويعتبر النقاد أن الشاعر عبد الله الفيصل من أقوى الشعراء الذين هاجموا الخريف، حيث اعتبره نهاية الشباب والحب وله قصيدة (طلائع الخريف) يقول فيها (الشعر يوحيه الربيع وجماله الترف البديع من لي به ويد الخريف تذوي أزاهير الربيع).

وفي السنوات الأخيرة تأثر الشعراء العرب والكتاب بالأحداث الدامية التي تمر بها المنطقة العربية فأطلقوا على المرحلة التي

نعيشها(خريف الأوطان)، وظهر كتاب يحمل اسم (خريف العرب) للصحفي التونسي سعيد تونس، أكد فيه أنه إذا كان العرب لا يملكون قرار حرب فكيف لهم أن يعطوا أو يمنحوا لغيرهم السلام، ووصف المرحلة التي نعيشها بأنها خريف العرب بعد أن دمر المنطقة ما يسمونه بالربيع العربي.

وقد كتب الشاعر السوري محمد الماغوط عن الخريف السوري فقال (على هذه الأرصفة الحنونة كأمي أضع يدي و أقسم بليالي الشتاء الطويلة سأنتزع علم بلادي عن ساريته. وأخيط له أكمامًا وأزرارًا وأرتديه كالقميص إذا لم أعرف في أي خريف تسقط أسمالي).

ويقول فاروق جويدة عن الخريف المصري (وأشتاق يا مصر عهد الصفاء وأشتاق فيك عبير العمر. وأشتاق عطرك رغم الخريف تفيق الليالي ويزهو الشجر).

فأدعو أصدقائي وأحبائي لمصر ولقلوبنا ألا تذبل مع الخريف وأن تعيش وتستمتع وتنتعش وتنتظر السلام والأمان وقصص الحب والنجاح، لأن الانتظار من أجمل المشاعر فلماذا لا نعيشه وننتظر!

العناية المركزة

بعيدًا عن التشاؤم والخوف من اسم المقال أؤكد لكم أصدقائي أن كلًا منا في حاجة لوحدة للعناية المركزة، مع اختلاف التخصصات ودرجاتها، فعلاقاتنا العاطفية والزوجية والعائلية وعلاقات العمل والجيرة والنسب والمواطنة جميعها تنهار ولا بد من إنقاذها، ومن أجل البداية لا بد أن نتحدث أولًا عن احتياجاتنا ومواردنا وخطة العمل وفترتها الزمنية، فقد أصبحنا نعيش في زمن المشروعات القومية والخطط الخمسية، وعلينا أن نرمم نفوسنا وعلاقاتنا ونشيد مشروعنا الشخصي قبل أي شيء آخر، ولكن أجد لزامًا عليّ أن أؤكد أيضًا أنه ليس لديّ أي نية للتحريض على الإضراب أو عدم التبرع للمشروعات الإنسانية أو للصناديق الوطنية بتلك الدعوة الأخرى (أن ينشئ كل منا وحدة للعناية المركزة خاصة به).

وللجميع أقول إن فكرة هذه المقالة هاجمتني بعد تجربة خاصة داخل تلك الغرفة التي أدعوكم لإنشائها، فقد كان الإلحاح قويًا كالهجوم المباغت فقررت أن أبدأ على الفور.

وقد لاحظت مؤخرًا هجومًا عنيفًا وشديدًا على الرجال، هجومًا فنيًا وثقافيًا، وأخشى ما أخشاه أن يصل للمجال العلمي أيضًا، فمن أجمل ما استمعت إليه أغنية تحريضية بصوت الفنانة أصالة، تكاد تدعو كلماتها النساء للبعد تمامًا عن الرجال، تحت أي مسمى وأي

درجة من درجات الحب.

ويكفي اسم الأغنية الساخر لمن يتذوق الكلمات (حيقولك انت الأولى.. وكمان الأخيرة)، وتستطرد الأفكار بصاحب الكلمات حتى تتحول المرأة لمركبة لقلب الرجل وجزيرة أيضًا يرسو عليها ويتعرض للموت من بعدها لا قدر الله، مما يضطره لتسليمها قلبه وإلا، وآه من إلا فسرعان ما تتحول المشاعر وتنتهي القصة بالوجع للمرأة، وليبدأ الرجل قصة جديدة سعيدة له وحده بالطبع، ويقول علماء النفس والاجتماع إن الرجل عادة ما ينظر إلى علاقته بالمرأة على أنها اتصال بين أفراد قبل العلاقة الرومانسية أو الزوجية أو حتى علاقة الطفل بأمه، ويصفون العلاقات بين الأشخاص بأنها أنظمة حيوية تتغير باستمرار أثناء وجودها مثلها مثل الكائنات الحية، إذ إن لها بداية وعمرًا زمنيًا و أيضًا نهاية، وقد طرح العالم النفسي (جورج ليفينجر) أحد النماذج الأكثر تأثيرًا لنمو العلاقات، وتمت صياغة هذا النموذج لوصف العلاقات الرومانسية، ووفقًا لهذا النموذج فإن التطور الطبيعي للعلاقة يمر بخمس مراحل من التعارف والبناء والاستمرار ثم التدهور والإنهاء، وبرغم أن العالم النفسي أكد أن هنالك علاقات لا تنتهي ولا تمر بهذه المراحل كلها، إلا أن أغلب المدارس في علم النفس تؤكد مسئولية الرجل، إذ يتحدثون عما يسمى علم النفس الإيجابي الذي يصف العلاقات السليمة بأنها بنيت على أساس من الارتباط الآمن، كما يتم الحفاظ عليها بالحب وسلوكيات العلاقة الإيجابية الهادفة، وتسير على منهج يسمى (مثلث الحب)، ويعني أن هناك خليطًا من ثلاثة مكونات، وهي العاطفة والارتباط الجسدي ومشاعر المودة التي تجمع الأزواج، وتكون سببًا رئيسيًا إن تو افرت

في علاقة زوجية مثالية، وقد استخدم علماء النفس تعبير (العلاقات المزدهرة) لوصف ما يحدث بين الأشخاص بصورة طبيعية، حيث تنمو العلاقة وتتسم بالمرونة، ومثل هؤلاء تكون لديهم القدرة على التوازن والتركيز في الحياة العملية أيضًا.

وهنا يمكن أن نتابع باقي خطط الهجوم الفنية على الرجال التي تتركز في مسلسلات اجتماعية بدأت منذ شهر رمضان، وقد اتفقت جميعها على أن الرجل هو السبب في أي مشاعر سلبية تهاجم المرأة وتدفعها إما للقضاء على العلاقة أو القضاء على نفسها، وللأسف أن هذا الرجل ليس الحبيب أو الزوج فقط، فهو دائمًا، أيًا كانت درجة القرابة، مسئول عما يحدث، كما أن هناك ما يسمى (علم العلاقات) ففي أثناء تسعينات القرن الماضي عرف هذا العلم الذي يميز نفسه عن طريق بناء الاستنتاجات على البيانات وتحليلها بصورة موضوعية وتعد الروابط بين الأشخاص أحد محاور علم الاجتماع.

وبعد إجراء دراسة على مجموعة من الأزواج لعدة سنوات طرح العالم النفسي (جون جوتمان) نظرية (المعدل السحري) للزيجات الناجحة، واشترطت هذه النظرية لنجاح الزواج أن يكون الزوجان في متوسط خمسة تفاعلات إيجابية إلى تفاعل سلبي واحد، أما إذا انتقل المعدل إلى 1: 1 فإن الطلاق يصبح أكثر احتمالًا وتشتمل التفاعلات بين الأشخاص المقترنة بعلاقات سلبية على النقد والتجريح والتحقير والحيل النفسية واحتكار الكلام وبمرور الوقت يهدف العلاج إلى تحويل الاستراتيجيات بين الأشخاص إلى أخرى أكثر إيجابية، التي تشتمل على الشكوى والتقدير وقبول المسئولية والتهدئة الذاتية.

ولهؤلاء المعرضين لأزمات حياتية وصحية قد لا تنتهي بسلامة، أقول أنشئوا سريعًا وحدات العناية المركزة، كل حسب تخصصه، فهناك زوجات في حاجة لجرعات مركزة من الحنان وأخرى لدفعات من التشجيع، وأمهات أجهدها الاشتياق و آباء وأجداد يكاد الإهمال ونسيان احتياجاتهم يقتلهم، و أبناء كادوا يتحولوا إلى قنابل موقوتة.

افتحوا أذرعكم وأحضانكم لكل هؤلاء وتذكروا أن وحدة العناية المركزة تقدم أقصى أنواع الرعاية الممكنة، وأن نسبة الممرضين فيها إلى المرضى تساوي 1:1 أي إنه عليك أن تزيد تركيزك وعواطفك لمن يحتاجك وتشعره أنه الأول في اهتماماتك، ومن المعلومات المتوفرة أيضًا عن تلك الوحدات أن العالم عرف لأول مرة مفهومها الطبي الحقيقي عام 1854عندما قامت (فلورنس نايتينجيل) بتصنيف مرضى حرب القرم إلى مجموعتين، إحداهما الإصابات الشديدة وعن طريق العناية المركزة استطاعت خفض نسبة الوفيات كثيرًا عن المعدل المعتاد في مثل تلك الحروب الكبرى، وفي عام 1953 ازداد استخدام هذه الوحدات لدعم الحياة خاصة مع تطور التكنولوجيا الطبية، وفي عام 1992 قامت الجمعية الطبية لوحدات العناية المركزة بالتعاون مع اتحاد المستشفيات الأمريكية بالتوسع في إنشائها وتزويدها بكافة الاحتياجات، عافاكم الله وأحبتكم و أبعدكم عن وحدات العناية المركزة الخاصة والعامة الطبية والأسرية.

البوح

قد يبدو عنوان مقالي الْيَوْمَ غير واضح بسهولة لأن الكلمة يختلف معناها باختلاف تشكيلها ولكنني أؤكد أنني أتحدث معكم الْيَوْمَ عن البوح بمعنى الاعتراف بالشيء وإظهاره وعدم الكتمان... فقد اعتدنا منذ نعومة أظافرنا، نحن أبناء هذا الجيل (جيل الأمهات والآباء الذي أصبح أغلبهم أجدادًا أيضًا)، ألا نبوح بما يدور داخلنا بسهولة كما اعتدنا الحذر والحرص على إخفاء مشاعرنا والتعامل معها كما لو كانت خطيئة ولا بد أن نخفيها وأن تظل في طي الكتمان..

وعندما يصل الشاب أو الفتاة لمرحلة المراهقة ترسخ هذه الفكرة في رأسه أكثر وهو ما يجعله يعاني من الكتمان وعدم البوح حتى في علاقته بوالديه وإخوته، فإنه لا يتخلى عن صمته ويقنع نفسه دائمًا بأن الوقت لم يحِن بعد للحديث، وعادة فإن مثل تلك الشخصيات كانت تقنع نفسها بأن البوح لا يكون بالكلمات فقط و إنما بالأفعال.

والحقيقة أن وراء ذلك ثقافتنا العربية وعاداتنا وتقاليدنا التي كبرت معنا واعتدنا عليها وتعايشنا معها حتى نفيق مع مرور الأيام لنفاجأ بأننا فقدنا الكثير وأن الزمن سرق منا أجمل المشاعر وأغلق عليها خزانة الأسرار وضاع وقت البوح والاعتراف ورحل الأعزاء والأحبة وأصبحنا لا نملك إلا الندم وألم الفراق وكلمة (لو).

ولكلمة البوح تاريخ قديم بنفس معناها الذي أحدثكم عنه فقد وجدت هذه الكلمة مكتوبة بنفس النطق في الآثار الفرعونية واستخدمت في العصر الفرعوني كاسم للإناث بمعنى (تقول السر) وكتبت بالأحرف اللاتينية (Bouh)، وكانت تستخدم بعيدًا عن الأسماء في نفس العصر بمعنى الجرح الصغير للأطفال.

وقد اتفقت المعاجم العربية المختلفة على أن البوح كلمة عربية مائة بالمائة. وعندما يتحدث العرب عن الشمس فإنهم يقولون (بوح الشمس) أي ظهورها لوضوحها الشديد.

ويقول علماء النفس إنه يجب علينا أن نتعرف على مشاعرنا وأن نعبر عنها بطرق صحية، وذلك الأمر يمكن اعتباره مهارة من السهل تعلمها بل يجب أن نتعلمها منذ الصغر وندرب عليها أطفالنا.

وفي إحدى المدونات التي تكتبها إخصائية أطفال وتشارك فيها الأمهات الصغيرات بالحديث عن مشاكل الأبناء وكيف يتغلبون عليها تقول لهن (اعترفوا بمشاعر الأطفال ولا تصادروها ولا تحبسوا مشاعرهم حتى لا تنقطع لغة الحوار بينكم، وإن كان طفلك رومانسيًا يميل لاحتضانك وتقبيلك كنوع من التعبير عن مشاعره فلا تحرميه من ذلك وعوّديه على البوح بما يشعر فهذه أول تدريبات له ليتعلم كيف يعيش حياة صحية).

وفي عالمنا العربي هنالك الكثير من مشاعر الكبت والحزن والفشل في التعبير عن المشاعر لذلك عادة ما نسمع عن ارتفاع معدلات الإصابة بالأمراض المزمنة التي تصيب القلب وتؤدي إلى حدوث الأمراض العضوية والتجلطات.

وقد أظهرت دراسة أمريكية، أعدها مجموعة من العلماء في كلية هارفاد للصحة العامة بالتعاون مع جامعة روشستر، أن الفشل في التعبير عن المشاعر من الأسباب التي تؤدي إلى الوفاة المبكرة، كما أن قمع المشاعر المختلفة وعدم البوح بها وكبتها في الصدور من الأسباب التي تقود المرء إلى الأمراض النفسية على الخصوص.

وهو ما يؤكده البعض عندما يقولون إنهم يشعرون بالتعب والإرهاق حين يحاولون كبت المشاعر التي تنتابهم بين الحين والآخر سواء كانت مشاعر غضب أو حزن أو حتى مشاعر حب.

و أثبتت النتائج أن مخاطر الوفاة المبكرة تتزايد بنسبة ٪35 من بين الأشخاص الذين لا يحاولون التعبير عن مشاعرهم، وأن ٪47 منهم عادة ما يصابون بأمراض القلب و٪75 منهم يصابون بالسرطان نتيجة الضغوط النفسية التي يتعرضون لها.

وكان فريق البحث المشارك في الدراسة قد قام بفحص 796 شخصًا من كلا الجنسين لتحديد مدى الكبت والتحفظ في المشاعر لدى المشاركين في الاستبيان وبعد ما يقرب من اثني عشر عامًا تم تكرار التجربة ذاتها بالأسئلة ذاتها على الأشخاص أنفسهم ليتبين أن 111 شخصًا من المشاركين في الدراسة توفوا نتيجة إصابتهم بأمراض القلب أو السرطان كما تبين أن معدلات الوفاة كانت أعلى عند الأشخاص الذين كانوا حريصين على كتم مشاعرهم وعدم البوح بها، بينما ساهمت المشاعر النفسية الإيجابية في المساعدة على العلاج والشفاء.

وتبين دراسة أخرى أجريت في المعهد الاجتماعي (فييسب) في سان باولو البرازيلية أن ما لا يعيه البعض هو أن المشاعر لا تختفي بل تحبس داخلنا إلى أن نسمح لها بالتحرر والخروج عند التعبير عنها بطريقة ما.

وبعيدًا عن الأمراض والتشاؤم نجد أن المؤرخين الفنيين كتبوا عن (تسعين عامًا بين التلميح والتصريح) وهي دراسة عن التصريح بالحب من خلال كلمات الأغاني فقالوا إنه في الثلاثينات من القرن الماضي كانت أقصى أماني المحب كما قال عبد الوهاب (امتى الزمان يسمح يا جميل واسهر معاك على شط النيل؟)، وفي الأربعينات كان البوح بالحب ما زال غير متاح فغنت أسمهان (امتى حتعرف امتى إني باحبك امتى؟)، وفي أواخر الأربعينات كانت أغنية ليلى مراد (مليش أمل في الدنيا دي غير إني أشوفك متهني)، ومع الخمسينات والستينات باتت الحياة أكثر وضوحًا فقال عبد الحليم (بأمر الحب افتح للهوى وسلم.. بأمر الحب افتح قلبك، اتكلم)، ويشدو فريد الأطرش ويبوح (قلبي ومفتاحه دول ملك إيديك)حتى نصل إلى السبعينات وتعترف أم كلثوم (عايشين نقول للدنيا بحالها ولكل قلب بدقته حس)، وفي الثمانينات جاءت المطربة المغربية عزيزة جلال وأعلنت (مستنياك يا روحي بشوق كل العشاق وتعبت من الأشواق)، وبعدها تتحدى سميرة سعيد (مش حاتنازل عنك أبدًا مهما يكون).

وهكذا نرى أن للبوح تاريخًا بين المقاومة والاختفاء والإعلان والحريّة؛ فأرجوكم بوحوا بما داخلكم حفظكم الله من أمراض الكتمان ومتعكم بكل المشاعر الجميلة.

جبر الخواطر

كانت لي أم جميلة القلب والمشاعر رحمها الله، أوصتني منذ طفولتي بجبر الخواطر، وشرحت لي و أفاضت في معنى هذه الكلمة ومغزاها ومكافأة الله لي إن نفذتها... وها أنا أوصيكم بها لأنها من أعظم الأعمال التي تقرب، ليس من الله فقط، بل من عبيده، فحامل هذه الصفة يستمتع طوال حياته بمشاعر الحب والامتنان والقرب من المحيطين به... وجبر الخواطر كما علمتني أمي هو أُسلوب حياة سلس نواجه به قسوة الأيام من حولنا، فما أشد قسوة كلمة «كسر بخاطري» وما أجمل دعاء «الله يجبر بخاطرك».

وهذه الكلمات التي لا نهتم بها كثيرًا، لأننا اعتدنا سماعها دون التفكير في معناها أو تأثيرها علينا وعلى المحيطين بِنَا. هذه الكلمات لو تأملنا تأثيرها في نفوس مَن حولنا لتغيرنا كثيرًا، فكثيرة تلك المو اقف التي يمكن استغلالها لجبر الخواطر وإسعاد الآخرين.

وإذا أردنا أن نبحث عن أصل الكلمة، ففي معجم المعاني الجامع والمعجم الوسيط واللغة العربية المعاصر ومعجم عربي عربي معنى كلمة «يجبر» وتعريفه «جبر، يجبر، جبرًا، وجبورًا وجبارة فهو جابر والمفعول مجبور للمعتدي وجبر العظم أي صلح، وجبر العظم المكسور أي أصلح كسره، ومن المجاز جبر الفقير من الفقر، وكذلك اليتيم، وكذا في المحكم يجبره جبرًا».

ومن ذكريات الزمن القديم الجميل لدى سكان حي مصر القديمة «برسوم المجراتي» ذلك الطبيب العجوز الذي عاش حتى اقترب من التسعين عامًا، وكانت عيادته القريبة من النيل من أهم معالم الحي، فقد كان المترددون عليها يوميًا بالعشرات، لندرة هذا التخصّص قديمًا وجاء اسمه من جبر العظام، فقد تخصّص في ذلك، والجميل أنه برع أيضًا في جبر الخواطر، فقد اشتهر بعلاجه للفقراء مجانًا، وكان يُردّد دائمًا أن الله جبر خاطره بالشهرة والمال، لذا وجب عليه مراعاة الفقير والعناية به كالأغنياء.

وإذا أردنا أن نصل إلى القيمة العظيمة لجبر الخواطر، فعلينا أن نتذكر الحديث الشريف عن رسولنا، صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما. وأعتقد أن هذا الحديث هو الشرح الوافي الكافي لجائزة السماء لجابر خاطر اليتيم.

وفي المشهد اليومي الذي يقابله كل منا منذ الساعات الأولى في الصباح وحتى المساء، فإن فرصة الحصول على تلك الجائزة متاحة للجميع فأي سعادة تلك التي سيشعر بها الصغير الذي يعمل في جمع القمامة إن ابتسمت في وجهه عند التقاء عيونكما وألقيت تحية الصباح عليه، فتلك المهنة التي تشعره بالدونية تترك بصمات عميقة داخله، ويتمنى لو عاش حياة أطفالك، وارتدى ملابسهم، وذهب مثلهم إلى المدرسة، قد تخف حدتها وقسوتها بجبر خاطره بابتسامة يومية.

أما البائع العجوز الذي تشتري منه بلين ومودة و ابتسامة بدلًا من عبوس الوجه أو حدة الصوت، فهو نوع آخر من جبر الخاطر.

ولا يمكن أن ننسى تلك السيدة التي تساعدنا في المنزل وعلاقتنا بها التي يشكو منها أغلب العائلات، فإن وضعنا اسم هذه المقالة عنو انًا لتعاملنا معها لاختلف الأمر كثيرًا، ولأصبحت عضوًا في العائلة يصعب إخراجه منها، لأن المنظومة الإنسانية التي تحكم علاقتنا داخل الأسرة يسهل أن تحتويها وأن تشعرها بأهميتها، ومن الصعب الاستغناء عنها.

ولا يختلف الأمر كثيرًا داخل الجامعة عن تلك الأمثلة التي تحدثنا عنها، لأن اختلاف المستوى الاجتماعي والمادي بين الزملاء لا بد أن يتم التعامل بحرص شديد حتى لا نخرج للمجتمع أجيالًا مريضة النفس تشعر بالظلم من الأقدار.

والطريف أن الشعراء وكتاب العامية لم ينسوا هذا المعنى الجميل، فسمعنا الفنان الكبير فريد الأطرش في فيلم «تعالى سلم» في الخمسينات يشدو «جبر الخواطر على الله، مش طالب منك غير طلة، تعالى سلم و أنا أسلم بالعين وبس مانتكلم».

كما غنى محمود شكوكو «جبر الخواطر على الله، والله ما أحب غيرك والله. و انت ليه ماتحبنيش، إلهي تحب، قول إن شاء الله».

الدبشك

أحدثكم اليوم أصدقائي الأعزاء حديث القلوب، فقد اخترت هذا الاسم لمقالي الأسبوعي و أنا أعلم أن الكثيرين سيتعجبون منه بل وأن البعض لن يستسيغ هذه الكلمة، وقد يجدها آخرون قاسية وستسألون جميعا عن سبب الاختيار.

بداية، لا بد أن أوضح أن الدبشك هو قاعدة البندقية التي تحميها، سواء كانت للصيد أو سلاحا ناريا يحمله الجنود. وللدبشك معي ذكرى غالية لا أنساها عندما أفزعني صوت ارتطامه بالأرض والجنود يؤدون التحية العسكرية لوالدي و أنا صغيرة، وقد كنت داخل العربة أمام مقر عمله بصحبة أخي، وعندما خرج من أمام الجنود ليلحق بنا سمعت لأول مرة في حياتي ذلك الصوت، ويومها عرفت أنها تحية القائد.

وظل عالقا برأسي وقلب الصغيرة التي لا ترى مثلا لها في الحياة أغلى من الأب بأنه رمز الاحترام والتقدير والعسكرية. وبطبيعة الحال لم يظل صوت الدبشك الذي شبهته في طفولتي بصهيل الحصان الذى يتفاخر بفارسه ويعبر عن سعادته عندما يدلله أو يحنو عليه مرتبطا بأبي رحمه الله، فقد اختلفت المو اقف وأضيفت مشاعر جديدة.

وبالأمس القريب عندما شاهدت أبطالنا الشباب وهم يتجمعون

في قاعدة محمد نجيب العسكرية ليحتفلوا بانضمامهم لصفوف القوات المسلحة، وسمعت صوت ارتطام الدبشك بالأرض أحسست أن هناك هزة أرضية حدثت في العالم كله، وسمعت دقات قلبي تتعالى وتدعو لهم بالسلامة وأن يحفظهم الله لمصر ولنا، والحقيقة أن دعائي لهم كان خليطا من المشاعر، فهو دعاء الأم والزوجة والأخت والابنة، فقد فجرت هذه الصورة البديعة المتناغمة مشاعر نساء الأرض جميعا داخل قلبي، حقا كان الصوت أشبه بهزة أرضية، فقد صدر عن 1500 دبشك لبنادق يحملها المشاركون في العرض العسكري، وكانت خطواتهم تحكي التاريخ المصري القديم والحديث على أنغام نشيدنا الوطني المصري، الذي يسير الأبطال على نغماته وعلى أكتافهم البندقية، ولهذا النشيد تاريخ عريق على مر العصور، حيث اختير لأول مرة، وتم عزفه في عهد الخديوي إسماعيل عام 1869، وكان مؤلفه الموسيقار الإيطالي فيردى، وفى عام 1923 تحول إلى نشيد (اسلمي يا مصر)، الذي كتبه مصطفى صادق الرافعي وظل حتى عام 1936، وعند قيام ثورة 1952 ألغي هذا النشيد وبدأ العمل بنشيد (الحرية) من كلمات الشاعر كامل الشناوي وألحان محمد عبدالوهاب، الذي يقول مطلعه (كنت في صمتك مرغم)، وقد استعمل هذا النشيد كجزء من نشيد الجمهورية العربية المتحدة بعد الوحدة مع سوريا عام 1958، وليتغير مرة أخرى عام 1960 إلى (والله زمان يا سلاحي)، كلمات صلاح جاهين وتلحين كمال الطويل، وقد اكتسب هذا النشيد جماهيرية كبيرة والتف الشعب يتغنى به أثناء العدوان الثلاثي على مصر، واستمر حتى عام 1979، وفي عام 1980 صدر القرار الجمهوري رقم 143 لتعديله وليصبح نشيد(بلادي بلادي)، الذي ألفه محمد يونس القاضي ولحنه سيد درويش وأعاد

توزيع موسيقاه محمد عبدالوهاب، هو النشيد الوطني وما زال حتى الآن.

وعندما يختلط صوت الدبشك بأصوات الأبطال ويبدأ العرض العسكري فإن تلك القلوب النقية التي نمت ونضجت على حب الوطن تهتف بشعار الوفاء، ولكل منهم شعار خاص، حيث يهتف رجال الصاعقة (التضحية، الفداء، المجد) ورجال المشاة يهتفون (قوة، عزم، نصر) والدفاع الجوي (الإيمان، العزم، المجد) ورجال القوات الجوية (إلى العلا، في سبيل المجد) ورجال سلاح الإشارة (الدقة، السرعة، الأمان) أما رجال المظلات (قوة، عزيمة، إيمان) ورجال البحرية (الشرف، العلم، الفداء)، وفي النهاية، فإنهم جميعا يهتفون بشعار القوات المسلحة التي تجمعهم تحت رايتها وهو (النصر أو الشهادة).

وللحياة العسكرية بريق وجمال لا يعرفه إلا رجالها، وأزعم أنني أحسست هذا الجمال والحب العفوي بين أفرادها بحكم النشأة في عائلة تضم ثلاثة أجيال منهم، فهذا الشاب الذي أقسم بالله العظيم أن يكون جنديا وفيا لمصر محافظا على أمنها وسلامتها وحاميا ومدافعا عنها وأن يطيع الأوامر العسكرية وينفذها ويحافظ على سلاحه ولا يتركه حتى يذوق الموت، تعلم مبادئ لا تستطيع أقوى الأمهات أن تغرزها في الأبناء بهذه السلاسة والقوة والتحدي.

وفي بداية تلك الحياة يكون أول الدروس في حب الغير، ويتعلم الأبطال الصغار كلمة (الدفعة)، وتطلق على جميع من التحقوا معا في نفس الوقت بالكلية أو المعهد العسكري، وتظل الدفعة مترابطة يجمعها الود والحب برغم الافتراق عند دخول الحياة العملية، إلا

أن هذا العهد لا يموت أبدا، ومع الدفعة يتعلم الطالب، الذي يطلق عليه (طالب مقاتل) طوال مدة دراسته الطاعة للرؤساء والاحترام والانضباط والاعتماد على النفس والنظام والخطوة المعتادة، يتعلم مبادئ القتال وسرعان ما يتخصص ويبدع ويتفوق ويبتكر ويصبح هو درع الوطن ويغني لمصر (وطني حبيبي الوطن الأكبر) و(عظيمة يا مصر يا أرض النعم) و(رسمنا على القلب وجه الوطن) و(الله عليك يا مصر و انت منورة بالنصر)، وينطلق هديرهم ليصل عنان السماء، وقلوب الأمهات تهمس بالسلامة والنصر لخير أجناد الأرض.

أصفر أزرق

قالوا إيه علينا، قالوا على ابني و أبوه وأخويا و ابن عمي و ابن صديقة عمري وزوجها و ابن جارتي اللي كانت بتاخد الدفعة كلها وهما أطفال توصلهم المدرسة وأرجع أنا علشان تسلمهم أمانة في عينيه ونرجع كلنا على البيت كانوا جيران وأصحاب و اتعلموا يحبوا المدرسة ومصر، ويحافظوا على العشرة الجميلة واللمة واللعبة وفسحة الأسبوع، كلهم مع بعض علشان إيديهم تبقى متشابكة وقوية.

قالوا إيه عن قلبي لما عليت دقاته وكان بيعلا صوته ويعلا و أنا عارفة إن ابني الوحيد وأول فرحتي في مدرسة الصاعقة بيتعلم يعني إيه مصر وإن الأرض هي العرض، وإزاي يقدم حياته فداء لها بدون تردد أو خوف. قالوا إيه علينا لو كانوا شافوا لهفتي وحبيب عمري مع زمايله بيستعدوا لقفزة بالمظلات وعمره 18 سنة وبادعي له بالسلامة، وإن ربنا يحفظه ويسلمه ويبعد الخوف عن قلبه علشان مصر، ولما رجع وسألته وصف لي أول قفزة بالمظلة (أصفر أزرق أصفر أزرق عشرات المرات وفي النهاية أصفر) وكان وصفا بليغا وجميلا لأنهم شافوا الأرض الصفراء والسماء الزرقاء مع كل لفة في الهواء، وكانت آخر لفة لما رجليهم لمست أرض مصر اللي عشقها اتزرع في دمهم وكانت هي الأرض وأجسامهم الجذور اللي استوطنت، و اتشعبت و انغرزت في سابع أرض، وكانت ثمرته وزهرها هو الشعار

اللي بيهتفوا به بأعلى صوت ويقولوا (التضحية، الفداء، المجد) شعار أبطال الصاعقة المصرية.

قالوا إيه لما علقت لحبيبي الصغير على زيه العسكري صورة النسر اللي ماسك بمخالبه التنين في إعلان واضح لمصير الأعداء وبعدها بشهور ضفت له شعار أبطال المظلات.

قالوا إيه لما أخدت ابني وقلبي في حضني وهو بيودع معلم الصاعقة اللي دربه وعلمه ودموعه بتوعده، باخد التار ويحلف بمصر إنهم حيرجعوا الحق لأصحابه.

قالوا إيه لما شافوا ابن (المنسي) لابس البدلة العسكرية وبيمنع دموعه كأنه راجل كبير في جنازة أبوه وسنده وحبيبه وصاحبه اللي كان في انتظاره ووعده بهدية النجاح.

قالوا إيه لما سمعوا الاسم الجديد للدبابة البشرية اللي فرمت عربية الإرهاب ومنعتها من الوصول لهدفها وغنوا باسمه أجمل أغنية بصوت الوحوش.

وعلشان هما غنوا وقالوا كتير قلت أكتب لهم وأعرفهم تاريخ الأبطال المصريين اللي بدأ تاريخهم من أيام الفراعنة لما كون الملك رمسيس التاني فرقة من الحرس الخاص ضم لها أبرز رجاله الشجعان، وشارك فيها في الحرب بمهام خاصة وهي الاستطلاع والهجوم. وفي عام 1955 أنشأ الفريق جلال هريدي فرقة الصاعقة في القوات المسلحة في العصر الحديث.

ومنها استطاعوا بعد ذلك تكوين مجموعة 39 قتال والمجموعة 777 اللي أنشأها عام 1978 اللواء أحمد رجائي عطية وهي قوات

العمليات الخاصة، ولها تسليح خاص على أعلى مستوى، وتشارك في تدريبات مشتركة مع عدد من الوحدات الخاصة الغربية، ومنها القوة دلتا بالجيش الأمريكي والقوة GIGN الفرنسية وGSG-9 الألمانية أيضا.

وزي ما قالوا وحكوا عن عرسان الصاعقة شبراوي وحسنين وخالد مغربي الدبابة؛ كان لازم أقول أنا كمان إن جريدة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية أعلنت في 3 يوليو 2016 على موقع (واي باك مشين) إن قادة إسرائيل قلقون من وجود (كتائب غير آدمية) في الجيش المصري (وهي الصاعقة). كما أعلن أحد الجنرالات الأمريكيين أن قوات الصاعقة المصرية هي الأقوى في الشرق الأوسط.

وإذا كانت بطولات أبنائنا أطلقت تلك الأنشودة الرائعة (قالوا إيه) والتي نرددها جميعا فقد أطلقت أيضا على مدار التاريخ خيال الشعراء، فكتب فارس الشعر المصري عبد الرحمن الأبنودي عنهم فقال (مش قادر أنسى يا ناس صورة شباب بلدي. تاني يا سينا في قلب الموت بتتولدي. مترصصين في صلاة الموت وصوت الأم بيشقني بدون ما أسمعها بتقول ولدي)، (كأننا مش من وطن واحد ولا احناش دين ولا مصر دي أم النسيج إسلام ومسيحيين)، (ويا مصر لا رجعة تاني ولا تفريط، المنخدع مرتين سامحيني يبقى عبيط، ياللي فتحتي البيبان للنوريخش الدور، ما ترجعيش للظلام ومعاشرة الوطاويط).

أحبائي وأصدقائي، أدعوا لهم مع قلبي يرجعوا لنا سالمين غانمين...

ودارت الأحلام

اكتشفت مؤخرا أن الحياة كلها بأيامها ولياليها وسهراتها، وشمسها وقمرها ونجومها، وغفواتها وأحلامها وأمنياتها، وأهدافها المقبولة والخرافية، تدور كالكرة الأرضية، وكلما تقدم بنا العمر وزادت سنوات عمرنا وهاجم الشيب رؤوسنا، وتنازلنا عن بعض الطموحات، وغادرنا بعض الأحباب، والتقينا بآخرين نبشوا قلوبنا، بحثا عن مكان أو سكنى أو دفء أو همسات ووعود...

حدث شيء من تلك الخواطر، وعرفنا المركز الحقيقي الذي ندور حوله، ولأن كل ما نمر به من مراحل ونجاحات وسقطات، وتألق أو خفوت، وحب وكراهية ويأس، وأمل وحنين واشتياق، وإشباع وفطام، ما هو إلا تفسير لأحلامنا، فقد تأكدت أنها تدور وتغير اتجاهاتها، فبعد أن كانت مجرد أمنية بأن تتفتح شعيرات الرئة الدموية، وتنتفخ وتمتلئ بالهواء الخارجي بعد تسعة أشهر من الاستيلاء على أكسجين الأم، كبرت الأحلام بعد أولى دوراتها، وعرفت طريقها والحقيقة والاتجاه الصحيح، فمن هواء النافذة الصغيرة إلى هواء شاطئ صغير، إلى آخر خاص جدا، ثم إلى آخر خارجي بعيدا عن الأرض والأصل وحضن الأم والأهل وأصدقاء الطفولة، و انتقلت من سيارة تدفعها الأم أمامها كما تريد، وتر افقها وتحوطها بعينيها ونبضات قلبها ودعواتها اللانهائية، إلى أخرى لا تسير إلا بشحنة كهربائية طفولية ضاحكة، كثيرا ما تنفد قبل موعدها، لتصدم القلب الصغير عندما يشعر بالفشل والخوف

من الانسحاب من سباق البدايات القصيرة وتهمر دموع اليأس وتبدأ رحلة البحث عن مساعدة.

وتتحول الأحلام إلى سيارة لا بد من وثيقة تأمين تحمي ما يتبقى من راتب الشباب، الذي لا يحقق كل الأحلام مرة واحدة، إلى سيارة فارهة، وتذاكر طيران صادرة من بطاقة ذهبية لا يحملها إلا صفوة المجتمع، وربما تصل إلى طائرة خاصة وقاعة كبار الزوار.

وتدور الأحلام، وتنتقل من حضن دافئ يحمي من تقلبات الطقس وبرودته وأمطاره، وقسوة صيفه وسخونة شمسه، إلى أيدي صاحبة ذلك الحضن، وهي تحتضن الكف الصغير، الذي بدأ في النمو واستطاع أن يضغط على تلك الأصابع، ويتعلق بها ويقبلها ويرفض أن يفلت يده من بينها، حتى في لحظات النوم، وتزداد رغبته في التشبث بها وقت الألم، إلى أن تدور الأحلام دورة أخرى، ويشير إليها من الطريق بعلامة النصر والنجاح، إيذانا بالبعاد والعدو وراء ما رسم من أحلام وتمن من جولات، بحثا عن حب وقلب وهمسات ولمسات مختلفة عن تلك التي منحتها له.

وتدور الأحلام وتتسع الدائرة وتتوزع المشاعر والقبلات والأحضان وتزداد الخطوات اتساعا ويعلو صوتها، وقد يصبح لها رنين تنتظره الأم والزوجة والأبناء ليكونوا في استقبال العائد دائما بعد غياب، حاملا لفافات الأماني.

وتدور الأحلام وتزداد وتصبح حملا ثقيلا على القلب والعقل والبدن، فيشعر الإنسان بأنه يطاردها ويصبح هدفه الأول الوصول في الوقت المناسب إلى نهاية السباق دون خسائر أو فقدان، إلا أن

معادلة الحياة لا تفك طلاسمها، دون الحصول على مقابل، فلا بد من إكمالها للحصول على النتيجة النهائية قبل أن تتوقف الأحلام عن دورانها، وقبل ألا يبقى لنا إلا الذكريات وصوت أم كلثوم تشدو وتبدع وتتألم وتتنهد، وهى تقول «ودارت الأيام»، لتؤكد ما قاله الحكماء في نصائحهم «لا تضع كل أحلامك في شخص واحد، ولا تجعل رحلة عمرك وجه شخص تحبه مهما كانت صفاته، ولا تعتقد أن نهاية الأشياء هي نهاية العالم، فليس الكون هو ما تراه عيناك». ولكم أؤكد، لا تحاولوا البحث عن حلم خذلكم، لأن الأحلام تدور وتدوروتعود وتتحقق.

مقالات الكتاب

البادي أظلم 5
بصمات مهنية 8
نديم شكواه 11
دفء القلوب 14
نقطة دمع 17
تسرب الأحبة 20
جهاز قياس الحب 23
وأنت العيد والعيدية 26
قلبي ومفتاحه 29
حدوتة حلوة 32
حكاية العمر كله 35
حبيب غايب 38
نغزات الندم 41
أميرة حبه أنا 44
نفوس آيلة للسقوط 47
حكايات القمر 50
حالة انبهار 53
خاص جدًا 56
شاحن القلوب 59
هلة وطلة 62
«خد وهات» 65

وأنت عني بعيد 68
سحر اللمسات 71
تقويم العشق والهوى 74
إعدام الذكريات 77
فن التدمير 80
خزانة الأسرار 83
لما الطب يقول بالأحضان نحيا 86
جزيرة الأشواق 89
علمتني الحب 92
سري للغاية 95
لما قالوا دي بُنية (بالضمة فوق الباء) 98
عشق المكان 101
النجاح القاتل 104
فن إتقان الحب والحياة 107
حنين «أم رسمي» 110
علاقات موجعة 113
سلال الحب والذكريات 116
بنك المشاعر 119
همس النجوم 122
فرق توقيت 125
وردة وفراشة 128
فرز أول 131
المباراة الصفرية 134

الانسحاب 137
صانع العشق والجمال 140
أشيائي الصغيرة (1) 143
أشيائي الصغيرة (2) 145
عشق النساء..... 148
عيون القلب..... 152
أوطان للبيع 157
وجه القمر..... 161
أنهار الفرح..... 166
خريف الحب والأوطان 170
العناية المركزة 174
البوح..... 178
جبر الخواطر 182
الدبشك 185
أصفر أزرق..... 189
ودارت الأحلام..... 192